رواية

النظر إلى أسفل

محمد جبريل

النظر إلى أسفل

روايـــــة

محمد جبريل

أخي الدكتور رضا عبد التواب،
أستاذ الجراحة العامة.
أدين ليك بفضل إتمام هذه الرواية.. لقد تدخلت – في لحظات قاسية، وحاسمة – فأضفت إلى حياتي – بإرادة الله – ما أتاح لي استكمال ما كنت بدأته.

وقف كلانا في نقطة الصفر، وطرح القرار نفسه: أن يغيب أحدنا من مواجهة صاحبه..

لم تكن نادية حمدي ممن يتنحون عن الطريق بسهولة، البراءة الظاهرة تضمر عنادا، بوسعك أن تتعرف إليه إذا حدقت في وحشية عينيها..

كان الجنون نهاية أتوقعها، وأخشاها، إذا لم تصل الأمور إلى ما انتهت إليه..

لم أكن بلا أصل – الصفة التي أطلقتها نادية حمدي، فحدث ما حدث – كان طربوش أبي المائل ناحية اليسار هو الصورة الأولى لذكر الاسم، يبدو فوق رأسه، فوق جسده البالغ الطول والنحافة، كأنه سباطة بلح تعلو نخلة. هكذا كانت تصفه أمي في أوقات الصفو. وكان يرد عليها معايرا بجسمها الشحمي:

– نخلة بلح أفضل من شجرة جميز!..

كان أبي دائم الاستغراق في القراءة. صحف وكتب وأوراق. تسأله أمي عنها، ومتى يعاملها كزوجة، من حقها أن تناقشه، تأخذ وتعطي وتسأل وتبدي الرأي، يزوم أو يرد بكلمات مبهمة. يعلو صوتها، فيعلو صوته، يغيب الصفو، ويتخلل النقاش لوم ومعايرة وشتائم وعبارات قاسية..

– أنت مثل حينا.. اسمه العطارين، ويخلو من عطار واحد.

– واسمك امرأة.. لكنك كالرجل الدميم..

يشغلني السؤال، فألقيه دون تدبر لحوارهما الزاعق:

– أين ذهب العطارون يا أبي؟..

في صوت يناقض الصراخ الذي كان يغلف كلماته لأمي:

– نقلوا دكاكينهم إلى بحري..

غاب الاثنان عن حياتي في ظهر لا أنساه. كان الجو شديد الحرارة، وأمي تعتب على أبي أشياء لم أتبينها. علا صوتها، فعلا صوته، وانهال عليها بفتاحة كتب في يده، حتى هدأت، وهدأ..

أهملت نظرات الدهشة، وربما الضيق، التي قابلت بها خالتي قراري بأن أظل بمفردي في الشقة، فلا تنتقل، وأسرتها، من غيط العنب، للإقامة معي، وإن أحسست بطمأنينة لإعلانها بأني أصبحت ابنا سابعا لها..

كومت الأثاث في الحجرتين المطلتين على شارع صلاح الدين، واكتفيت بالصالة، أقرأ، وأتمدد على الكنبة الإستامبولي في مواجهة باب الشقة، وأنام في حجرة أبوي، تحتل زاوية البيت، فتطل على شارعي عبد المنعم وصلاح الدين. أما الحجرة الرابعة، فقد شغلتها المجلدات والكتب والصحف التي أجاد أبي ترتيبها..

ساعدتني خالتي في البداية، بثلاثة جنيهات، شممت فيها رائحة عرق صدرها..

قلت لها – بعد أيام – إني لم أعد أملك ثمن الوجبة التالية..

قالت، وهي تسوي ملاءتها حول جسدها:

– لقد كبرت يا شاكر.. فحاول أن تعتمد على نفسك..

كانت مكتبة أبي هي أول ما فكرت في بيعه. شجعني على ذلك أني كنت قرأت معظم ما ضمته من كتب. كان أبي

دائم القراءة، فقلدته. فلما غيبه السجن، قرأت حتى ما لم يكن يأذن لي بقراءته. أهملت المذاكرة، وقرأت كل ما صادفته. حتى القصاصات الصغيرة التي كان يحتفظ بها من الصحف..

كنت أحمل ربطة الكتب (أتأكد من أني قرأتها). يقلب صفحاتها عم توفيق، بائع الكتب القديمة بشارع مسجد العطارين. يدفع لي المقابل دون فصال، جنيهين أو ثلاثة، أنفق منها على أيامي التالية. أحاسب وأدقق وأحتاط. أشتري من البغدادي في نهاية شارع عبد المنعم، ثلاثة أرغفة، وخمسة أقراص طعمية. قرشان يكفيان وجبة كاملة. أبدأ فأعد مجموعة كتب لأيام قادمة. وكنت أذهب – أحيانا – إلى سوق الكانتو. أبيع بعض ما خلفه أبواي من ثياب. وبعت في سوق الجمعة تماثيل صغيرة، كانت تزين الصالة..

وكان شعوري بالوحدة يتزايد في أوقات بعينها، وإن كانت دقائق الإفطار في رمضان تشقيني تماما. أعد الطعام، وأضعه على المائدة، وأنتظر صوت المدفع، حتى لو لم أكن صائما. يعمق من الوحشة حولي، وفي داخلي: الصمت السادر، صوت الطعام في فمي، حركة الملعقة. أظل من

نافذة شارع عبد المنعم، أتعجل عودة الحياة إلى الدكاكين المغلقة، والشوارع الخالية من المارة. وفكرت أن ألوذ بتكية الميرغني القريبة من البيت..

عماد عبد الحميد..

لست أذكر متى بدأ يزاملني في الشقة، نقرأ ونتناقش، يأتي من شقتهم في الطابق الأعلى بوجبة الغداء. انتهت زياراتي إلى مكتبة عم توفيق، وسوق الكانتو، وسوق الجمعة. هدأت الدوامة من حولي، فشغلني السؤال، كيف أواجه أيامي القادمة؟..

عماد من مواليد العام الذي ولدت فيه. تزاملنا في العطارين الأولية، حتى السنة الثالثة. ثم نقله أبوه إلى مدرسة الإسكندرية الابتدائية بمحرم بك. وكان ترتيبه الثالث بين سبعة إخوة، خمسة أولاد وفتاتين. ألفت هدوء أقواله وتصرفاته، يهمس ويعلو صوته، يرضى ويغضب، يناقش ويسأل ويوضح رأيه، فلا يبين عما في نفسه. كأنه يأخذ الأمور بأقل مما تحتاجه من جدية، لا ينفعل بحزن أو بفرحة أو بسؤال. يتهدل جفناه – غالبا – في استرخاء، كأنه يتهيأ لنوم، أو أنه لا يحمل نفسه شيئًا مما يدور حوله. لكن متابعته

للتفصيلات الصغيرة، وأسئلته المتوالية، ونصائحه التي ربما ضقت بها، كانت تعكس اهتماما غاب في ملامح وجهه. يفاجئني بسؤال عن موضوع الجغرافيا الذي لا أفهمه، الضلفة المكسورة في نافذة المطبخ، زيارتي القادمة إلى أبي، موعد انتهاء إنذار شركة الكهرباء بقطع التيار، انقطاعي عن زيارة خالتي. استطعت – بدوام الملاحظة أن أتعرف إلى ما قد يثور في داخله من انفعالات يجيد كتمها، شعرة وهمية في أذنه اليمنى، يتحرك بنانه وسبابته، ينتفها بتلقائية سريعة، متوالية، ترافق كلماته التي مهما علا صوته، فإنها تظل متثاقلة..

مع أن عماد لم يكن يتلفت وراءه وهو يحمل صينية الطعام، فإني كنت أكره نظرات أبيه، وأخشاها. ألتقي به – مصادفة – في صعودي أو نزولي – على السلم. يكتفي بتلك النظرة الغامضة التي تغيظني، وأتذكرها. لا يسلم ولا يتحدث. تشغله الملفات التي يحملها في ذهابه وعودته من عمله..

وقلت له، يوما:

– لماذا يكرهني أبوك؟..

مال برأسه إلى الوراء:

- من أوهمك؟..

قلت:

- نظرته.. كأنها بصقة!..

قال كالمتأمل:

- تعبير غريب..

واستطرد في بسمة مشفقة:

- أبي مشغول بعمله وأمراضه.. لهذا تفوته المجاملات الاجتماعية.

وعلا صوته كأنه تذكر شيئًا:

- أتدري؟.. لقد عرض أن تعمل معه في الغرفة التجارية..

أضاف لنظرة التساؤل في عيني:

- أبي باشكاتب الغرفة..

قلت، وأنا أشير إلى صينية الطعام:

- هل يعرف؟..

قال:

- إني أنفذ أمره..

قلت في أسى حقيقي:

- أصبح شاكر المغربي مشكلتكم الأسرية!..

أشرت إلى مجلة قديمة، بها صور لاحتفالات رأس السنة:

- هل أصبح ذات يوم من هؤلاء؟..

دون أن يزايل هدوءه:

- ربما تكسب الملايين.. لكنك لن تصبح منهم..

ألقيت بالمجلة في ركن الصالة:

- ناقص رجل؟!..

رفت على شفتيه ابتسامة سخرية:

- الانتماء للطبقة الأعلى له اعتبارات أخرى..

غالبت التوتر في داخلي:

- ما يهمني أن آكل الطعمية بمزاجي، وليس بالفقر..

هز كتفيه مهونا:

- بعض هؤلاء لا يملك شيئًا..

قلت:

– أنت تحيرني!..

قال كأنه يلقى أمرا:

– فلتظل في حيرتك، بدلا من التطلع إلى أعلى!..

أذكر المرة الوحيدة التي غادر فيها عماد عبد الحميد هدوءه. أغمض عينيه، وجز أسنانه، وهز قبضته، لما تلقيت إشارة سجن الحضرة، بأن أبي مات..

سوزان النجار..

التقيت بها – للمرة الأولى – في معهد ليلي، يطل على ميدان سانت كاترين. كانت التوجيهية حلما غاليا، لم يحل اشتغالي بأكثر من عمل، دون أن أسعى لتحقيقه..

قال لي عماد عبد الحميد:

– أنت الوحيد الذي غادر الدراسة من بين شلتنا.. فلماذا لا تواصلها في المساء؟..

اتجه – مدفوعا – بتحمسه – إلى المكتبات المتلاصقة خلف المرسي أبو العباس..

قال، وهو يلم ثمن الكتب من جيوب الجاكتة والبنطلون:

- ظروفي أفضل من ظروفك..

وأخلى وجهه لابتسامة مشجعة:

- أحاسبك فيما بعد..

لم أحاول أن أناقش، ولا أن أبدى اعتراضا، أو أحاول رد النقود. أهملت تصور عماد أن النقود هي الباعث لترددي في مواصلة الدراسة. كان الشهر في أوله، وفي جيبي رواتب أماكن ثلاثة أعمل بها: مخازن البنداري في السكة الجديدة، المعلم سيد الزنكلوني تاجر المانيفاتورة، مركز الشباب بمدرسة إبراهيم الأول الثانوية.. غمرني شعور يصعب أن أصفه لك، لكنني اطمأننت معه إلى تصرف عماد عبد الحميد، فلم أحاول مناقشته..

بدت سوزان النجار مغايرة لكل من في المعهد، كثيرة الحركة والسؤال، تشعرك بوجودها في كل لحظة، يكتفي المدرسون - أحيانا - بتوجيه الأسئلة إليها، أو بالرد على أسئلتها، كأنها قد أصبحت موكلة عن الفصل بكامله. اقتحم الإعجاب بها أعماقي. لابد أن الأمر كان كذلك بالنسبة للآخرين. ما كان يفد إلى أذهاننا، أو نعجز عن فهمه، تبادر بالسؤال عنه، ربما قبل أن نحاول صياغته في سؤال. تركنا

لها التوصل إلى غموض بعض المواد. وكنا نكتفي بالإنصات إلى المناقشة، والتسجيل. وشكت يوما من أن سنها لا تتيح لها استخراج رخصة قيادة سيارة، فعرفت أنها لم تبلغ الثامنة عشرة، وإن بدت – بذكائها، وملامحها المهمومة – أكبر من عمرها الحقيقي بسنوات. انشغلت بمتابعة تصرفاتها ونقاشها مع الأساتذة والدارسين. لم أحاول أن أحادثها، أو أن تلحظ عيني المتابعتين لحركتها الدائبة..

اقترحت – لتأكيد المودة – أن نقضي يوما في حدائق الشلالات. كلنا من العاملين، من يحصل على إجازته يوم الجمعة، ومن يحصل على إجازته يوم الأحد. أبدى البعض اعتذاره من أنه يعمل دون إجازات. ناقشنا الأمر، فقررت – كان قرارها – أن نقسم أنفسنا إلى مجموعتين، كل مجموعة تقضي الرحلة في يوم إجازتها، جمعة أو أحدا. لم يكن لدي يوم إجازة محدد، مع ذلك، أعلنت رغبتي في أن أشارك في المجموعتين، علا إصبعي، وأعلنت رغبتي، وجلست. جرى الأمر في تلقائية. لم أناقش – حتى مع نفسي – ظروف عملي..

حين أقلب الأمر، فإن عاملين متناقضين يتقاسمان مشاعري بصورة مؤكدة: أخشى التحدث أمام الجماعة، يدركني التلعثم، وأتمنى أن ينتهي الأمر على أي نحو. أتبين فساد البضاعة، فلا أحاول إعادتها. أرفض الذهاب – بمفردي – إلى أي مكان. أحرص أن يصحبني صديق، أو أصدقاء. أعتذر عن عدم المشاركة في المناسبات. أجلس في مؤخرة الصفوف أو منزويا. أفضل الوحدة والانطواء، فلا أخالط إلا لضرورة. إذا حاصرتني النظرات لفني توتر، لا يفارقني حتى أنصرف. أوافق على الرأي المقابل لمجرد البعد عن النقاش. لا أحاول السؤال، فإذا اضطررت للإجابة، خالطت صوتي رعشة الارتباك، وعجزت عن النطق بطريقة صحيحة..

مع ذلك، فإن الجرأة في طبعي، لا أستطيع أن أنكرها، أو أتخلص منها. تبين عن نفسها بلا مقدمات ولا أسباب محددة. تصادف استنكارا واضح يطل في نظرات الآخرين. أنسى الزمان والمكان، وأتصرف بتلقائية. لا يشغلني معنى الكلمات أو وقعها. أناقش التصرف – فيما بعد – وأرتب الكلمات. أقرر كتم الجرأة المندفعة، في مرات تالية..

اخترنا الناحية الأقرب إلى طريق الكورنيش. الهواء – رغم سطوع الشمس – أقرب إلى البرودة. تأثيرات المظاهرات التي اجتاحت الإسكندرية، في الأيام الماضية – أغصان أشجار متكسرة، وأحجار صغيرة، وحصى – ملقاة على الأعشاب.. لم أحاول أن أشارك في الحديث الذي لا أدري بواعثه، ولا كيف بدأ. صوت سوزان النجار علا، فشابته حدة. استلفت النقاش عابرين في الحدائق، فتوقفوا للمتابعة..

قال محسن هلال:

– هكذا أنت.. تعجزين عن إقناعنا بالحوار.. فتحاولين إقناعنا بالقوة..

أشاحت بظاهر يدها، فبدت أظافرها المطلية بعناية:

– أنت الذي تنكر ضوء الشمس..

قال محسن هلال:

– هل أصبح انقلاب الضباط ضوءا للشمس؟!..

قال عزت الرشيدي:

– وحل الملك.. فحل بدلا منه ثلاثة عشر ملكا..

قال محسن هلال:

- إنهم عشرات الملوك.. يتولون الآن قيادة العمل في الوزارات والمؤسسات الحكومية..

قال الرشيدي:

- المفروض أن يكون للدولة جيشها.. ما حدث أن الدولة هي التي أصبحت للجيش..

قال بيومي عبد العظيم:

- الوفد هو صاحب الحق الشرعي في السلطة..

قالت سوزان:

- هل كانت له ولاية العهد؟!..

هز قبضة يده:

- حصل على الأغلبية الشعبية..

سرت العصبية بارتعاشة واضحة في صوت سوزان:

- هذه ثورة.. وعلى الجيش أن يطمئن إلى استمرارها..

قال محسن هلال:

- هل هي وصاية؟.. طالب الشعب بعودة محمد نجيب..

قال سوزان:

- عودة محمد نجيب تعني عودة الأحزاب..

قال الرشيدي:

- فليعد الشيطان نفسه!..

قال بيومي عبد العظيم:

- التعميم لا أحبه.. ظل الوفد على صموده إلى آخر لحظة..

قالت سوزان:

- لو أن الوفد طهر نفسه.. فمن المؤكد أن الضباط كانوا سيتركون له فرصة الحكم..

قال بيومي عبد العظيم:

- حتى أخطاؤهم.. تريدين نسبتها إلى الوفد..

قالت سوزان:

- بل إني لا أبرئ الأحزاب مما يجري الآن..

قال محسن هلال:

- تذكري أن هيئة التحرير تجمع لكل الأحزاب..

قالت سوزان:

- الهيئة لا يدخلها سوى العناصر الوطنية..

التمعت عيناه ببريق غضب:

- من الذي يملك الحكم بذلك؟!..

أضاف، وهو يضرب الهواء بظاهر يده:

- لابد أن يعود الضباط إلى ثكناتهم، ويتركوا السياسة لأصحابها..

- إذا كان البيان الأول قد أوهم الملك أن الحركة تنحصر داخل الجيش، فإن البيان الثاني أكد وجوب التغيير في كل شيء..

هكذا تكلمت. واحدة من لحظات اندفاعي الغريبة والمحيرة. لم أكن أعددت كلماتي، ولا انتويت المشاركة في النقاش أصلا. سمعت آراءهم من أفواه الآخرين، في أماكن أخرى. شاهدت المظاهرات والهتافات بعودة محمد نجيب، وتحطيم شعار عبد الناصر: ارفع رأسك يا أخي. حتى اللافتة الزجاجية أمام سينما مترو، تناثرت - بضربة شومة - حطاما في الطريق. قرأت رد أنور السادات في "الجمهورية" على السؤال الهتاف: أين خالد محيي الدين؟.. أحببت سوزان في نقاشها المنفعل. كرهت هؤلاء الذين حاصروها بآرائهم

المغايرة. بدا لي الدفاع عن رأيها مشاركة واجبة. ربما استمعت إلى كلماتي من قبل، أو قرأتها. ربما تحدثت بما أسعفني به الخاطر، لمجرد أن أتحدث، أن أدافع. هل كنت أنا الذي تحدثت؟ هل كانت الكلمات كلماتي؟.. بماذا أجاب الآخرون؟.. كيف انقضى اليوم؟.. غابت الأسئلة والأجوبة في اجتراري لما حدث، طيلة اليوم وأيام تالية. ألفت – فيما بعد – نظراتها الحانية، وأحاديثها غير المتكلفة (كانت تخصني بها أحيانا). تجرأت، فرجوتها أن تشرح لي درس الفرنسية الذي لم أحسن متابعته، في موقعي آخر الفصل..

بدا لي الأمر غاية في البساطة. أكشف لها السر الذي يمور في أعماقي، فتبدي تفهما. تبدأ الرحلة التي تأخرت بأعوام عمري كلها. لم يعد خاطرا يفد ويذوى. شملني تماما. امتد إلى المجهول، عالم حافل بالأعاجيب. ما عداه طريق إلي، وثرثرات، وهوامش.. ق.. د.. م.. حتى الحروف تهب التأثيرات التي أتنبه لها، أصحو، ألتفت بتلقائية، أكتم الصخب في داخلي. حتى لو كانت الكلمة في جملة، لا تعبر عن المعنى، وتبعد عنه. يلفني التنبه. لحظات تقتطع نفسه. كأنها الزوال الممتد. كأني لست أنا، وكأن الآخرين ليسوا هم.

تغيب النواهي والمحظورات، وأفتش عن المعنى الذي يشغلني. قد يكون هو، أو قريبا منه. أبذل جهدا لكي لا يفطن أحد. أسلم نفسي إلى الدوامة التي لا تعنيها الدهشة. تختلط الرؤى والأحلام والتصورات. تبدو الملامح باهتة، أو كالظلال. قد يغيب المعنى في الكلمات، يبدو منفصلا عنها، ومنفصلة عنه. يهدأ التنبه، وتتجه النظرات إلى حيث كانت، وإن ظل الخيال في انطلاقاته التي لا يحدها قيد. أجوس في عالمي بالنظر إلى الجسد، طوله أو قصره، ميله إلى البدانة أو ضموره. الأصابع مقصوصة أو مهملة. أخمن الصورة إذا غيبها الحذاء، في الموضع الذي تحدده لنفسها داخله..

"لو أنك تهبينني قدميك".. "لماذا القدمان بالذات"؟.. "العلاقة لا تشغلني في ذاتها".. "فقط أريد أن أتعرف إلى السبب".. "القدمان – ولو بالنظر – مطلبي النهائي". تخلع الحذاء، والجورب. تمد ساقيها أمامي. يعلو الصراخ الهامس، تتصاعد دقات الطبول، تزأر وحوش الغابة، يتعرف المارد الحبيس إلى دنيا الحرية والانطلاق..

– لو أنك تهبينني قدميك؟..

قالت ضاحكة:

- وأسير بلا قدمين!..

تصورت أني أغازلها. دفعت بجرأتي:

- القدمان هما ما أحبه..

- قد يليق بك العمل صبيا في دكان أحذية!..

تغلفت كلماتها ببساطة هادئة، فزاد قلقي: النيران المشتعلة تهدد بإحراقي. ضاعف من ألمي ومضة سخرية برقت على جانب فمها. لم يعد بوسعي التراجع. قلت وأنا أجاهد لمنع الارتعاشة في سبابتي المصوبة ناحيتها:

- هذه كلمات قاسية!..

طق في عينيها شرر:

- لأن مطلبك سخيف!..

- أنا أعرف ما أطلبه..

علا صوتها:

- وما شأني؟!..

لا أذكر متى حدث ذلك تماما. لكن الخوف غلبني، فاعتصرت قدم أمي. وكنت أنام في الناحية المقابلة من السرير.

وأنا أعالج الحشرجة التي خنقت صوتي:

- ألسنا أصدقاء؟..

- لما وافقت على صداقتك، فلأن جسور الاتصال بين عقلينا (ضغطت بإصبعين على جبهتي، فتفاقم إحساسي بالمهانة) كانت قوية.. لكنك تصر على النزول من الرأس إلى القدمين.. فما ذنبي؟!.

أغمضت عيني، وتمنيت أن أفتحهما على مكان آخر:

- أعرف أنها مشكلة..

- مسئولية حلها تقع عليك وحدك..

تألقت في القاع ثمالات أمل:

- فما جدوى الصداقة؟..

- لا يهمني تأملك لقدمي، أو حتى إمساكك بها.. لكنني أرفض المعنى الذي تقصده..

أسفر الأمل عن قسمات واضحة:

- صدقيني.. لا شيء يعادل ما طلبت..

شابت صوتها حدة:

- إذا نظرت إلى قدمي.. فأنت تضع حدا لصداقتنا..

أضافت وهي تهز سبابتها:

- لن أكون متسامحة منذ الآن في اتجاه نظراتك!..

التقاط الجزئيات صعب: حرص أمي على نظافة قدمي. تطالبني - عقب كل مشوار - بضرورة غسلهما. أم جابر الغسالة، يلذ لها أن تداعب بطني - وأنا نائم - بقدمها. مدرسي في العطارين الابتدائية، نسيت اسمه، وإن خلف في مشاعري تأثيرات لم أفلح في التخلص منها.

أحاول تبين بواعث القسوة التي كان يعاملنا بها الرجل، فلا أوفق. كان يعاقب الفصل كله لخطأ تلميذ واحد. لم يكن يدرس لنا، وإن بدا حريصا على أن تشمل قسوته فصول المدرسة. يمر بجوار الفصل - في فترة ما بين الحصتين - فيسمع لغطا. يدخل الفصل، فيأمر التلاميذ أن يخلعوا أحذيتهم وجواربهم، ويضعوا أقدامهم على الأدراج. بقطعة خشب منتزعة من أرضية الحجرة، ينهال على أقدامنا، يتعالى الصراخ والبكاء وعبارات الاسترحام. وكان شعوري يختلف تماما. الضرب على قدمي يؤلمني. مع ذلك، يشوب الألم لذة، يرتجف لها جسدي، وأحبها..

لم تلحظ سوزان اتجاه نظراتي. لم تتواصل بيني وبينها – عقب الحوار القاسي – صداقة ولا علاقة من أي نوع. اكتفيت بالفترة التي أمضيتها في المعهد. حاولت المذاكرة بمفردي، أستعين بعماد في فهم ما قد يكون غامضا. بدا رسوبي – في نهاية العام – مفاجأة له، وإن حزنت شخصيا، ولم أفاجأ. كنت أعمل اليوم بكامله، فلا أخلو إلى المذاكرة إلا وأنا مكدود. في زياراته المتباعدة، كان يعجب لانصرافي إلى المذاكرة، فلا يسأل عن بقية اليوم: كيف كنت أقضيه. استغرب (جاء ذلك متأخرا) أني كنت أفضل القراءة الخاصة، في كل ما تصادفه يداي، عن الكتب الدراسية، أفرد الكتاب على الطاولة، بجوار السرير، كأني كنت أقرأه. يجول عماد – في زياراته الليلية – بنظره في الصالة، يعيد كلمات سبق أن قالها، عن الجامعة، والمستقبل، والظروف التي ينبغي تجاوزها. أعود بعد انصرافه إلى القراءة. أقرأ وأقرأ وأقرأ. أذاكر في الكتب الدراسية قليلا، وأخلو – بقية الليل – إلى الكتب التي أستعيرها من مكتبة عم توفيق، ربما حتى يتسلل ضوء النهار من خصاص الباب..

وسأل عماد – عقب رسوبي للمرة الثالثة:

- ماذا تنوي؟..

قلت في استسلام:

- لعل الأصوب أن أنهي حياتي نفسها..

لم أعن ما قلت. ولم يكن التخلص من الحياة مما يدور لي ببال. أواجه الخوف في فكرة الموت. يبدو لي نهاية قاسية..

أحدثت الكلمات تأثيرها المطلوب. قال في تأثر:

- تكرار الفشل لا يعني نهاية العالم..

قلت:

- تعني أن أتقدم للتوجيهية مرة رابعة؟..

خفت صوته:

- الشهادة ليست هدفا.. ولكن الاستقرار مطلوب في كل الأحوال..

قلت في حيرة صادقة:

-ماذا أفعل؟..

أعرف كل ما قالته نادية حمدي. من همست لهم بكلماتها، همسوا لي بها: ما يهمني هو مضاعفة ثروتي. قفز

الرقم من الصفر إلى الملايين. تصلني التقديرات، فأستمع وأسكت أتعمد ألا أثير شائعاتها التي كانت تنتقل من آذان الآخرين إلى أفواههم، لم أحاول حتى أن أحادثها في رهن اسمي للبنوك، لقاء مصوغات قدرت قيمتها بأضعافها. هل تهرب الأموال إلى الخارج؟.. وهل تعد نفسها للهرب أيضا؟.. واطمأن بالي – قبل أن أعلن مخاوفي – لما رأيت صفقة سيارات "المازدا" يضيق الجراج عن استيعابها. مجال آخر للتجارة، سهوت عن التعامل فيه..

لم تكن التجارة، الصفقات والمناقصات والمزايدات والتصدير والاستيراد، مما أعد له نفسي. يذكرني عماد عبد الحميد بما قلته له يوما: احذروا أن تصبحوا أغنياء بدوني. لا أذكر أني قلت ذلك على وجه التحديد، وإن بدا لي العمل ضرورة كي أواجه هم الوجبة التالية، والمستقبل الذي تنقصه الشهادة. ذوت مكتبة أبي، فلم يعد فيها ما يغري عم توفيق بالشراء (فاق ما كنت أستعيره من كتب، ما كنت أبيعه) غاب التماع عينيه عندما كنت أحمل إليه – في البداية – ربطات الكتب. يكتفي بالنظر إلى الأغلفة، يتركها في موضعها على

المائدة الرخامية: هذه كتب متخصصة، يصعب بيعها أو إعارتها. سافر اليونانيون واليهود والأروام إلى بلادهم.

قلت نداءات الجرسونات في مقاهي العطارين: متريو.. سكتو.. موليجي.. روسيكو.. جراتسيا.. تشاو أفوليو اكوا.. اختفت مطاعم التيروبيتا والسبانا كوبيتا والباكاليارو والجاريدس. نشطت محال السمسرة وبيع الأثاث القديم، وسوق الكانتو القريب، باع تجار قطع غيار السيارات بشارع صلاح الدين محالهم لتجار مصريين من أبناء الحي، وإن دفع السعر الأعلى – في بعض المحال – تجار من أحياء أخرى..

قال عماد عبد الحميد:

– هذه فرصتك للعمل بالتجارة..

قال حسونة النقراشي:

– قيمة هذا الحي في سهولة القيام بالأعمال التجارية داخله.. البورصة وعشرات المكاتب للمحامين والمحاسبين وتسهيل السفر والاستيراد والتصدير، حتى دور السينما والمطاعم والمقاهي، تحقق للحي نشاطا مؤكدا..

قلت:

- أتاجر بالنيات الطيبة؟..

تساءل عماد:

- ومكافآتك؟..

قلت:

- بالكاد تكفي الطعام..

ألقى على المائدة جنيهات:

- هذه مكافأة شهري الأول بالصحافة.. فابدأ بها..

حين أعلن جمال عبد الناصر وحدة مصر وسوريا، كنت قد هجرت الوظائف تماما. ساعدني حسونة النقراشي في البحث عن مصادر للدخل. العمل عند الآخرين معناه الاكتفاء براتب محدد. الاتجار للحساب الشخصي يضاعف فرص الربح. شراء البضائع من غزة، وبيعها بزيادة مقبولة. العمل في مقاولات البحر، وفي التخليص الجمركي، العملات. حتى مجرد الشراء بالحجز، وإعادة البيع عند الاستلام..

كان النقراشي يسكن في شارع الليثي، المتفرع من العطارين. تعارفنا في بورصة النيل. تبادلنا الأحاديث،

فاكتشفنا الجيرة. أعطيت انتباهي لآرائه ونشاطه، واستبدلت فهم السوق والمعاملات بالشهادة الدراسية..

تابعت – في جلسة المساء – لهجة حسونة النقراشي المتسائلة:

– كيف تصبح دولتان، دولة واحدة، دون اتصال جغرافي؟..

قال عماد عبد الحميد:

– شخصية عبد الناصر تكفل القضاء على كل العقبات..

قال النقراشي:

– العصا السحرية في الحواديت وحدها..

جاوز عماد الملاحظة، وقال في ثقة:

– بهذا أصبح بقاء إسرائيل مسألة وقت..

قال النقراشي:

– فماذا عن مستقبل الوحدة ذاتها؟..

قال عماد:

– نحن دولة زراعية.. والسوريون تجار.. وبدهي أن يكسب التاجر..

واتجه بكلماته ناحيتي:

- لو أني مكانك لانصرفت إلى التجارة..

كان الأقل من رواد بورصة النيل يشغلون مساحة الداخل، وهي فسيحة نسبيا. أما بقية روادها فهم يجلسون في مساحة الرصيف بكامله، يطل من ناحية على شارع عبد المنعم، ومن ناحية على شارع العطارين. وغالبية الرواد من الموظفين، وإن تردد عليها - فترة الصباح - بعض العاملين في الميناء، وفي المحال القريبة..

كنت أشارك في جلسة المساء بآراء لا يضيق بها أحد لمجرد التحدث وإظهار المشاركة. عماد عبد الحميد وحده أواجهه بآرائي. يعلو نقاشنا واختلافنا، فيغيب الحذر، أو أنه ذلك الإصرار الذي تحركه جرأتي المفاجئة - في مواجهة الآخرين - بالانتصار لكل ما قلت. ربما أبديت ملاحظة قاسية، فلا يجاوز صوته الهدوء، ويظل جفناه في انطباقهما..

قلت:

- هل تسمي تحركي بأقل من مائتي جنيه تجارة؟..

قال:

- إذا حاولت التركيز.. فثق أن المائتين سيصبحان ألفين ومليونين..

قلت:

- والشهادة؟.. رافق هز رأسه، ضم أطراف أصابعه:

- رخصة عمل.. وأنت ناجح في أعمالك..

قلت:

- هذا الرأي، لأنك أوشكت على التخرج في الجامعة.. تحرك إصبعاه بنتف الشعرة الوهمية في أذنه، وظل صامتا..

في مدى شهرين، كان سوق النصر قد تغير إلى سوق سوريا، وفد إلى السوق عشرات من التجار السوريين، استأجروا الدكاكين الخالية، ودفعوا خلوات في الدكاكين التي تردد أصحابها في تركها، وشغلوا – بالإقامة – فنادق وسط المدينة، ألغيت الجمارك، وتحدد سعر تشجيعي للعملة، فغزت البضائع السورية أسواق المنطقة، بين شارع الميدان إلى أول ميدان المنشية..

اخترت – في البداية – أن أحصل على البضائع أمانة، فيتم الحساب بعد بيعها: جوارب وثياب داخلية وقمصان ومصنوعات من البلاستيك، أتاح لي الحاج بخيت البشري

ركنا قبالة دكانه، أعرض جزءا من البضاعة على الترابيزة الصغيرة، وأحتفظ بالباقي في غرفة، بشقة العطارين..

زارني في شقة العطارين كثيرون، يشاركون في التجارة، أو أصدقاء. بوسعي أن أدفع، وأدعو إلى الجلوس، وإلى الطعام والشراب. أخوض في الأحاديث، فينصت محدثي. أبدي ملاحظة فتتلقى استجابة، أغازل فينعكس الصدى حمرة في الوجه..

لكن الإحساس بمخالفة الآخرين يضعني في جزيرة منعزلة. أعاني الوحشة، والسر الذي يصعب – إن لم يكن من المستحيل – أن أعلنه. أحاول – لأن السر مفضوح – ألا أطيل النظر. تهبني الفتاة شفتيها، فأمني النفس بأن الشفتين جزء من جسد نهايته القدمان. يتحدثون عن علاقات ومواصفات ومواقف. أكتفي بالمشاركة دون حماس. تأتي السيرة كلمة في ملايين الكلمات. تبرز أمامي كأنها الرمز، المدخل، إلى عالم أتوق لأن أحيا عمري داخله..

شعرت – أحيانا – أني إذا كنت أختلف، فإني أخالف أيضًا. ما أحبه سري الخاص. حتى التي تهبني ما أريد، تنتظر نهاية العلاقة. هذه لحظتي بلا حدود. النشوة بلا

انتهاء. لا يشغلني سوى التألق الذي تشنجت فوقه يداي. لا أفلته حتى تتحقق الرجفة. فأهدأ، فأهدأ، ثم تبحث نظراتي عن مشتهاها من جديد..

ذات يوم، حقق الحلم المجنون نفسه:

في بساطة، خلعت فاطمة شبيرو حذاءها، ومدت قدمها اليمنى على الترابيزة أمامي. قالت، تعبر عن الإرهاق بإغماض العينين:

- مشوار متعب..

قلت، أحاول القفز من أسوار الجنون:

- لو أني قبلت هذه القدم.. أضمن لها الراحة..

اتجهت إلي بنظرة متسائلة. بدت غير مصدقة. كان حرصي أن تظل الهواجس اللعينة داخل جسدي، أصادف وألتقي وأحدق بما يعني الشرود. يلفني الانبساط، وتجري يدي - إذا اطمأننت، ولو قليلا، إلى غياب النظرات - بالنشوة القاسية المحمومة، فلا تكف حتى تأتي الرجفة، تدفع بالصراخ إلى حلقي..

تملكتني الجرأة المسيطرة، فأشرت إليها بمطلبي، من نافذة دورة المياه. لم أكن شاهدت الفتاة في نافذة البيت

المواجه من قبل. ربما كانت ضيفة، أو خادمة؟. لكنها استجابت، فكشفت عن ساقيها. أضفت الخيال إلى ما استطعت تبينه من الوهج البعيد، حتى تحققت الرجفة، وانسحبت إلى الداخل. ثاني يوم، آلمتني صبية في نحو الثانية عشرة. وقفت في النافذة المقابلة، وكشفت – وهي تضحك – عن ساقيها..

قالت، ربما مسايرة للدعابة التي تصورتها:

– لكن قدمي اتسخت من العرق وتراب الطريق..

أبان الجنون نفسه. انتقل الوميض من الترابيزة إلى يدي. احتضنته، كأني أستوثق أن ما حدث ليس حلما. نسيت المحاذير، وباب الشقة المفتوح، وردود الأفعال واندفاعات العاصفة المقبلة. أدنيت الحلم من الفم المشتاق. أجوس الغابة المتألقة بعيني وأنفي وعنقي وصدري. حتى الذرات الطينية العالقة بين الأصابع. تكاد النشوة تتفجر دما. السعار المحموم يسري بارتعاشاته. الرجفة التي أعقبها الهدوء، وشت بالسر، فسحبت القدم العارية، ودستها في الحذاء..

البساطة التي حدث بها ما حدث، جعلت تكراره ممكنا. تخيلت الآتي، وقادم الأيام.. لكن الإحباط لفني عندما جاءت

فاطمة شبيرو في اليوم التالي. دست قدميها في صندل – تحسبا لما قد يحدث – بدا الإصبع الأكبر بالقدم اليسرى بلا ظفر. باخت الرغبة، تلاشت، أهملت ما حدث في اليوم السابق، كأنه لم يكن..

الشاطئ..

كيف لم أفطن إليه؟..

قال عبد الباقي خليل في جلسة المساء:

– كنت صباح اليوم في مشوار بالمنتزه.. من يشاهد الشاطئ يظن أنه مستعمرات للعراة..

قال النقراشي:

– يتعرى الناس أو يستترون.. هذه حريتهم الشخصية..

قال عبد الباقي:

– تنكر أنه على المرأة المسلمة أن تخفي جسمها؟..

أردف الحاج بخيت البشري:

– ما عدا الوجه والكفين.

هتفت:

– والقدمين؟!..

نطقت الجرأة بما أرادت، فتوهمت أن الغرفة الواحدة والأربعين كشفت سرها. استقر الأمر من زمن. ما أحبه هو الرمز والمدخل ومبعث النشوة. أكتم السر بالنظرة العابرة التي تتجه إلى بعيد.. لكن النظرة تعود وتعود. تشحب كل المقاييس وتختفي، فلا يشغلني سوى السحر المتألق. أفتش عنه في كل ما تصادفه عيناي: محدثتي، عابرات الطريق، صورة في مجلة، مشهد سينمائي. أساير الخيال – أحيانا – في امتدادات التصور. لا يتاح لي أن أتكلم، أو أعبر عما يزلزل أعماقي. يشقيني إحساس ممض بالوحدة، وربما الضياع. لا أحد غيري في الجزيرة المنعزلة. يصعب أن أشير إلى مجرد وجودها. كأنها الجريمة التي أحرص على كتم سرها. لا أذيعه، فأعاني اتهام النظرات..

تسلل الخوف في تشابك المناقشات. أيقظني صوت عماد في سؤال غاضب:

– لماذا تتصور نفسك في حرب مع كل من يختلف معك؟!..

فاضلت بين الشواطئ، فاخترت العجمي، رواده أقل، ويعنون بما يشغلني، يلجئون إلى الشامبو والبديكير والحجر

الخفاف والحمام الدافئ. الجلوس في كازينو "هاني مون" المواجه لبيانكي، يتيح لي المشاهدة والتأمل، والبعد – في الوقت نفسه – عن النظرات المتلصصة..

أجلس – أيام الشتاء المهجورة – على شاطئ الكورنيش، أو شاطئ المحمودية، أو في حدائق رأس التين، أتأمل قدمي العاريتين، ويدي تعبث باللذة إلى منتهاها. تتسلل أصابعي داخل البيجامة لمرأى الأقدام الحافية في حدائق الشلالات.

الانشغال باللعب يتيح لي اقتحام عالمي الأثير. تعرفت، وتأملت، وحدقت، وأطلقت الصرخات الهامسة. فاجأتني نظرات الدهشة، فشملني ارتباك، وابتعدت. غبت عن حدائق الشلالات، فلم أعد أذهب، إلى اليوم الذي قضى فيه طلبة المعهد المسائي إجازة الجمعة. حرصي على مرافقة سوزان النجار أنساني الحادثة القديمة..

كان النهار في أوله. اخترت المكان الذي تحدد في مخيلتي من قبل. على المائدة المجاورة، رجل في أوسط العمر يطالع جريدة، وبالقرب من الباب المفضي إلى السطح شاب منمش البشرة، وفتاة اتجهت بوجهها إلى الحائط..

تسللت نظراتي في البداية. طافت بالمكان، تعرفت إلى السائرين والجالسين، والذين غطت المياه سيقانهم، أو يقيمون البيوت على الرمال، أو يلعبون الكرة. أهملت الحذر، وأشفقت على الجرأة الحبيسة في اندفاعاتها، ساعة أو نحوها. تسلل – كالخدر – شعور يصعب أن أصفه لك. ما تعرفت إليه، وتبينت تفصيلاته، سبق أن التقيت به، من النافذة، وفي الطريق، والأماكن العامة، ووسائل المواصلات. السر الذي يستحيل البوح به، هو المشكلة التي باخ إزاءها كل شيء.

لم يكن عدم انطباق المواصفات وحده، هو الباعث للقرار الذي اتخذته وأنا أغادر العجمي، بعد ساعتين من جلوسي في "هاني مون". بين العشرات اللائي يسرن، ويقفن، ويجلسن، تبدو المنية كأنها الهدف الذي تشتت في المسارب المختلفة. ألتقط، ألمح، أتأمل. ينحسر رد الفعل في اللاشيء حولي. أغمض عيني، وأخشى أن تكون هذه هي الصورة التي ترافق خيالاتي إذا خلوت إلى نفسي. يدهشني أن الذي تألق بالمواصفات تغيب صورته أمامي. أتمنى أن تكون الصورة المحددة هي آخر ما أغادر به المكان، تحملها

الذاكرة بتفصيلاتها ومنمنماتها، إلى الغابة التي يتمطى فيها الخيال بلا قيد..

أحببت الخيال في توالي الصور. بدا لي تخيل ما أرتجي، أجمل من كل ما يتحرك أمامي. أفهم قول عماد عبد الحميد أنه يفضل أن يقرأ المسرحية ولا يشاهدها. يتنازل عن تذاكر المسرحيات للمعلم إحسان شكر الله صاحب بورصة النيل. الخيال لا يحده قيد، يضيف ويحذف ويجعل الصورة على النحو الذي يريده. تبين داخل الحذاء صورة أطلبها، فلا أقبل سواها. تصدمني الصنادل والشباشب والأحذية المفتوحة بما لا أحبه. تغيب الملامح التي يرفض الخيال غيرها..

لم يكن عدم انطباق المواصفات التي حددتها، هو الباعث الوحيد لاتخاذ القرار. توالت ضربات السر، يريد الإفصاح عن وجوده. ترين البرودة والغربة. يصعب أن أغادر ما أحياه، حتى بالإيماءة، أو النظرة السريعة. أخشى النظرات التي قد تفطن إلى السر، فتذيعه. قالت سوزان النجار – لما بحت لها –: لن أكون متسامحة في نظراتك. يدركني الحصار في جزيرتي الجميلة، المنعزلة. أتوق لمن

أحادثه ويحادثني. أروي له الحكاية من بداياتها، أضع سري في أذنه، فيبدي تفهما. تدرك العينان المقابلتان – حين يجري ما يجري – معنى التصرف. لا يصبح السر همي، فتعرف صاحبتي أني أريد ذلك فعلا، لا أعاني كتم مشاعري، وأتبين الانعكاسات التي تملأ وجهها، فلا تشغلني، أو تضيف إلى بهجة الأعماق. يغيب – في رد الفعل – وميض السخرية، والنيل – في أحاديث سمعتها – من الآراء التي اكتفت بحد المعقول. تجوس في الغابة معي. تصادق غموضها ووحوشها وأشجارها المتشابكة الأغصان..

سألني الحاج بخيت البشري:

– أين كنت؟..

قلت:

– الجمعة إجازة..

قال:

– انس الإجازات، حتى تقف على قدميك!..

قال حسونة النقراشي، وهو يساعدني في فتح باب السيارة:

- الذكاء أهم من المال في دنيا المقاولات..

أضاف، ونحن نغادر مكتب الشهر العقاري بالعطارين:

- المكان غير مطلوب.. والمواصفات لا تهم أحدا.. كل المطلوب فعلناه الآن.

أضاف مؤكدا:

- مجرد أن تسجل اسمك في الشهر العقاري.. ثم تبدأ..

قلت:

- هل يعني هذا أني أصبحت مقاولا؟..

قال في ضحكة هادئة:

- وبوسعك أن تبدأ اليوم عمليتك الأولى..

قلت محذرا:

- معلوماتي في المقاولات تساوي صفرا..

فتح - بحركة سريعة - درج السيارة المواجه لي. قدم ما بداخله من نقود:

- نحن من الآن شريكان..

صحبت حسونة النقراشي - صبيحة اليوم التالي - إلى الباجور. تأملت المشاهد المتوالية في دهشة طفل. لم أكن

شاهدت الريف ولا تعرفت إليه من قبل، لم تجاوز صورته ما رأيته في الأفلام بسينما الدورادو أو فريال أو ركس. أعطيته نصف انتباهي وهو يشرح لي طبيعة العملية، وما يجب أن أفعله. كان قد درس الأمر جيدا. مارس مثله – من قبل – مرات كثيرة. الصمت دوري الذي ينبغي أن أشارك به. كانت الصورة مغايرة لكل ما تعلمته، ومارسته في التجارة. بدت لي المسألة غاية في التعقيد: شركة القطاع العام تتنازل عن عملياتها لشركات الأفراد، الهدايا والعمولات الشخصية تضاف إلى العمولات الرسمية التي تتقاضاها الشركة، متعهد الأنفار يأخذ الفارق دون عناء، واستخدام مقدم المقاولة في مشروعات أخرى، في مناطق غير التي تعاقدت على التنفيذ فيها..

لم أحاول أن أمارس نشاطا يحسب ضدي، أو أصدر شيكات بدون رصيد، أو أجازف برشوة أحد، ربما أدعي المثالية، فيوقعني في مأزق..

وقلت لعماد – ليلة – وأنا اطمئن إلى إغلاق الخزانة:

– عدوان ٥٦ كان خيرا وبركة..

أضفت لبريق الدهشة في عينيه:

- بعده أنشئ القطاع العام..

ظل في دهشته:

- القطاع العام ضد نشاطك؟!..

- بل ضرورة لنشاطي.. لولاه ما استطعت أن أفعل شيئًا!..

أهملت - فيما بعد - تجارة الجملة. وضعتها خارج الإطار الذي أتحرك فيه. قال النقراشي: السير في طريق الاشتراكية، يعني وضع تجارة الجملة كلها - ذات يوم - في يد القطاع العام..

هل أتعب لغيري؟!..

كانت سونيا - بمفردها - تؤدي كل شيء، وإن همست لي - ذات مساء - قبل أن نغادر المكتب:

- أرى أننا توسعنا.. من اللازم أن نستعين بموظف رجل!..

نجوى هيكل..

لما دعوتها إلى مشاهدة الفيلم، الذي شاهدته من قبل، كنت أريد أن يروي لها ما عجزت عن الهمس به..

لم تكن نادية حمدي قد تعرفت إلى المارد في داخلي، عندما أصبح سري الشخصي معلنا. ترافق اتجاه نظراتي، تناقش إعجابي ورفضي. تتيح للدخان المكتوم أن يغادر مكمنه. تروي لي عن بيكاسو وديستويفسكي وتاليران وتليش، تدفع أسوار العزلة بعيدا، كانت تستوعب ما تقرؤه، يجد موضعه في أرفف ذاكرتها فلا يضيع، انشغالها بالصفقات والمناقصات والمزايدات والإشراف على أعمالها، لم يكن يتيح لها حظ القراءة الذي كان لي، وإن ظل ما قرأته في موضعه من ذاكرتها، بينما أسقطت ذاكرتي العديد مما قرأته، وتعرفت إليه. أحلم بنساء بيكاسو اللائي عني برسم أقدامهن، أتخيل أني البطل في روايات ديستويفسكي، أركع عند قدمي حبيبتي، أقبلهما، أمتص الأصابع واحدا واحدا، اغفري لي، أعطيني قدمك الجميلة أغسلها بدمعي. الجنة قدما المرأة. أرتشف قطرات النبيذ التي تتساقط من أصابع ماتا هاري، أنصت إلى زوجة تليش: لقد رأى قدمي، فتزوجني!..

بوسعي أن ألمس الوهج في علاقات لا حصر لها، أتشمم رائحته المتميزة، أحدق في الأصابع، واختلافات الخطوط، والنعومة، والخشونة التي تأخذ صورة التشقق. لم

تعد مشكلة دخول العالم الذي أحبه، في الوقت الذي أريده. المشكلة في الفعل دون رواية، دون أن أرد على السؤال: لماذا؟.. وكان ذلك يشقيني. السر عالمي الخاص الذي لا يجاوز أسوار الذات. ألمح، فتبين الشفاه عن ابتسامات مشفقة أو ساخرة، يرتفع الحاجبان بما يعني الدهشة. اكتم السر دون إعلان، وأرتمي في أحضان العلاقة إلى نهاياتها. أتشاغل بالفم، بالعينين، بالأذنين، بالعنق، أعود إلى القدمين فلا يبين السر عن ذاته. لم تكن نادية حمدي مطمحي فيما أحب.. لكن الهاجس، المطلب، النداء، الذي كنت أخفيه بأعوام عمري، أودعته صدرها، أصبحت تعرفه، تناقشني فيما كنت أرفض التلميح به. لا معنى بدون البوح، المصارحة، الكشف عما بداخل النفس. مع أنها عجزت عن دس قدمها في حذاء سندريللا، فإني استمتعت بخطواتها الحافية في عالمي. تتابع نظراتي إلى أسفل، تناقشني فيما أحب وما لا أحب، تعزف إلا عن لمس باطن قدمها، تغيب الأصابع النحيلة غير المستوية، ويقاسم الخيال ملمس البشرة الناعم..

ساق كلير، اسم الفيلم الذي لم تظهر فيه قدم عارية. المعنى يعبر عن الأعماق، وما أريد البوح به، الحلم والرغبة

والمنية. همي قدما نجوى هيكل، أرنو إليهما، أحدق، أتصور أنهما في يدي، أتحسس البطن والظهر والكعب والأصابع، أتشمم وأقبل وأمرغ وجهي. ساق كلير شاغل الشاب منذ البداية، يحاول، يخترع الوسائل، يفلح في إثارتها ضد الفتى الذي تحبه. تنفعل وتبكي، تنعزل عن كل ما حولها، حتى عن الأصابع التي بدأت في التسلل إلى الساق، تلمسها، تهمس بالكلمات المواسية، تدنو – من بعيد – كلمة النهاية..

قالت نجوى هيكل، ونحن نميل من طريق الحرية إلى شارع صفية زغلول:

– فيلم سخيف.. تابعته إرضاء لك!..

وأنا أغلب التوتر:

– قصته نفسية:

هزت كتفيها باستهانة:

– هل ضاقت الدنيا ببطلك المسكين، فاقتصرت رغبته على مجرد لمس ساق فتاة؟!..

أضافت في ضيق:

– تصورت أني سأشاهد فيلما يساوي إعجابك به!..

شدني اسم "الكونتيسة الحافية". شاهدت حفلة الصباح في سينما بلازا. فطنت إلى مشاهد التألق. وكنت أنتظرها في الحفلات التالية، حتى انتهى عرض الفيلم..

فاجأني عماد في جلسته وراء مكتبي..

قلت مستغربا:

– لم تذهب إلى جريدتك هذا المساء؟!..

قال:

– أردت أن أخبرك بما جرى..

تساءل الخوف:

– قرارات جديدة؟!..

قال وهو يفسح المكتب:

– الصحف – منذ اليوم – ملك الاتحاد القومي..

أطلقت تنهيدة، وقلت مداعبا:

– أصبحت موظفا حكوميا..

قال:

– اسم القانون تنظيم الصحافة، وليس تأميمها..

علا صوتي في تأكيد:

- أيا كانت التسمية، فقد أصبحت الصحافة ملكا لعبد الناصر..

أضفت:

- أخفقت صحف الثورة. فاستولت على كل الصحف..

نقر جبهته بإصبعه متذكرا:

لم تكن هذه وحدها ما صدر من قوانين اليوم.. تولت مؤسسة النقل العام مسئولية مرفق النقل..

غالبت القلق:

- وشركات نقل الركاب؟..

قال:

- سقط التزامها.. تساءلت في خوف حقيقي:

- هل التأميمات قادمة؟!..

قال لي حسونة النقراشي:

- لن تصبح شيئًا ما لم تدخل الميناء..

أضاف لدهشتي:

- كل الناس المهمين بدءوا حياتهم منه..

قلت:

- ماذا أفعل؟..

قال مهونا:

- لن تبدأ شيالا مثل الآخرين.. تملك المال لبداية أفضل!..

بدا مستقرا وقانعا بالعمل في المقاولات. تفرد بمناقصات، وشارك في أخرى، وعمل من باطن القطاع العام.

تحددت المقاولات عالما وحيدا، يصعب أن يتطلع إلى ما وراءه أو يغادره. استندت إليه في بدايات عملي بالمقاولات. فلما أبانت الفرص عن ملامحها، أشفق من المغامرة، ونصح بالتريث. انسقت للجرأة المقتحمة في داخلي، أعلنت عن نفسها، فأهملت مقاومتها المستحيلة: المقاولات خطوة تالية، فلماذا تعود إلى البداية؟.. لكن قسمات التجارة أمامي كانت مغايرة لتصريف بضائع سوق سوريا وغزة. الفرص السريعة التي تسابق التلميح وبطء المقاولات، وتفلح في الاختفاء من الأعين المتلصصة. امتلكت جغرافيا المنطقة، الشركات الملاحية، وشركات النقل والشحن

والتفريغ، في القباري والورديان ومينا البصل والمنشية والجمرك..

كنت قد أتممت تراخيص بيع مائة سيارة "نصر" بضعف سعرها. وكنت قد اشتريت التراخيص بنصف الثمن، عندما طالعني وجه عماد عبد الحميد – بعد غيبة – على باب مكتبي:

– مضى زمان لم أزرك..

اعتدلت في جلستي بحيث واجهته:

– فعلا!..

لم يكن لدي وقت عمل محدد. كل ما أستطيع أداءه أفعله، في المكتب، أو في البيت، أو الإجازة الأسبوعية. من قراءاتي القديمة أن العمل عشيقة غيور. عاملته على هذا النحو. ألفت الغياب عن الحي، وعن بورصة النيل، لا لمجرد ضيق الوقت، أو العزوف عن المقابلات، وإنما لأن مقتضيات العمل تفرض بقائي في مكتبي. اطمأن أصدقائي إلى ذلك الفهم، فتباعدت زياراتهم، وإذا جلسوا، فإن تفرغي الكامل لأحاديثهم لا يعد مطلبا..

قال:

- كيف حالك؟..

قلت:

- الحمد لله..

وهو يجول فيما حوله:

- ماذا تفعل الآن؟..

احتسيت فنجان القهوة دفعة واحدة:

- إني مشغول في محاولة فهم الشعارات الضخمة التي تملأ حياتنا..

وهو يجلس على الكرسي المواجه للمكتب:

- مثل؟..

قلت وأنا أعد بأصابعي:

- تصفية بقايا الإقطاع.. القضاء على جيوب الرأسمالية الكبيرة.. حماية المنجزات الثورية. إلى آخر الكليشيهات التي تتنافس في إبرازها الصحف الثلاث..

قال و هو يغالب الحرج:

- أنت الآن تقرأ الصحف.. وهذا إنجاز طيب..

قلت لأبي:

- ما معنى شبق؟..

كنت قرأت الكلمة في كتاب. نهرني، وسأل بخوف غاضب:

- من قال لك هذه الكلمات؟..

- قرأتها؟..

أين؟..

- في مكتبتك..

- ليس كل ما في مكتبتي يصلح كي تقرأه..

أضاف محذرا:

- لا تدفعني إلى إغلاق دولاب الكتب!..

قل اهتمامي بالقراءة عندما أسلمت نفسي إلى دوامة العمل وإن أمدتني قراءاتي في مكتبة أبي، وكتب الإعارة في مكتبة عم توفيق، بما كنت أحتاجه للتعبير عن وجهة نظري. أكتفي بالصمت والمتابعة. تنطلق الجرأة المقتحمة، في لحظة ما، بما تراه، وتدافع عنه..

قلت:

- أحاول أن أفهم: ماذا تدبر لنا الحكومة..

ثنى إلي ملامح متسائلة:

- وماذا فهمت؟..

قلت:

- لاشيء.. سوى أنهم يضعون العصا في العجلة..

طوى - بعصبية - غلاف كتاب في يده:

- أكذب عليك لو قلت نعم. إني أفضل أن أحتفظ بأموالي، بدلا من إيداعها في البنوك.. وألجأ إلى الصفقات العاجلة التي لا تتطلب سيولة. أخشى أن تفاجئنا قرارات اشتراكية جديدة..

امتدت أصابعه إلى الشعرة الوهمية:

- فارق بين الاستثمار والنهب..

كان يمسك بآرائه، فيلفني الغضب، وربما كرهته. يتوهم أنه الصح، والآخرين أخطئوا، لا يعلو صوته، ولا يبدي انفعالا كما يفعل عبد الباقي خليل، ولا يأخذ الأمور باستهانة كما يفعل النقراشي وإنما ينصت. يبدو كأنه أولى اهتمامه، أو كأنه اقتنع. يعيد كلماته - وهو ينتف الشعرة الوهمية - بما يشعر محدثه أنه قد استمع لرأيه، بعد أن اتخذ قراره، وانتهى الأمر.

قلت:

- أخفق الثعلب في الحصول على العنب، فادعى أنه حصرم..

غلبه الكسل، فتمطى. ثم قال بصوت متثائب:

- لم تكن التجارة من طموحاتي..

- أتحدث عن القافلة التي تتبع حاديا ينادي: أنت تاجر.. إذن فأنت لص..

قال متصنعا الحيرة:

- من يدري؟.. لو أن قانون الكسب غير المشروع طبق عليك.. ربما عوقبت على مجرد حياتك بيننا؟!..

كان عماد عبد الحميد ينتظرني قبالة مسجد القائد إبراهيم في السادس. الموعد الذي حدده. لم يكن المشوار في بالي، ولا تصورت أني أجوس - برفقته - عالمي الأثير..

- ربما تأخرت مساء الأربعاء عن جلسة المقهى..

أضاف للتساؤل في عيني:

- سأصور موضوعا لصفحة المرأة.. عن وسائل العناية بالأظافر!..

- أذهب معك؟

تيقظت مشاعري – فجأة – بلا حد. كأني في قلب الحلم الذي لا يفارقني. لم تطف التسمية حول المعنى. حددته تماما. بدا الهدف ثابتا في الذهن وحدقتي العينين. أختلي بالكنز الغالي، اقترب منه، أحدق فيه، دون خشية من افتضاح السر. ربما لمسته أصابعي قبل أن أضغط على زر العدسة:

- أذهب معك؟!

- أنت لست مصورا؟!..

- التصوير ليس مشكلة!..

اكتفى بنظرة دهشة، فأعدت القول:

- أذهب معك؟!..

نطقت الجرأة ما أرادت، فلم أقو على كتمها. أهملت حتى النظرة التي جاوزت الدهشة، فبدت تساؤلا عن المعنى. تباعدت زياراته، وأهمل التوقع بان أزوره لانشغالي الواضح بالعمل. أشكو من تلاحق الزمن، وتراكم المواعيد، وقلة ما يحصل عليه البدن من راحة..

- هل تترك عملك من أجل موضوع سخيف؟..

لما انهال المدرس بعصاه، التفت بالنشوة، فنسيت الصراخ. غالبت الخوف والحرج حتى قال الولد علي الدسوقي: لا تتظاهر بالتجلد. فاطمأننت إلى غياب المعنى..

قلت، وأنا أجاهد لكتم الدخان المتصاعد في أعماقي:

– تغيير!..

اتجه إصبعاه – بعفوية – إلى الشعرة في أذنه:

– وماذا أقول للفتاة التي ستتولى الشرح؟..

– لن تقول شيئًا.. الموضوع قائم على التصوير.. ولدي كاميرا تفوق ما لدى أعظم المصورين المحترفين!..

قلت، وعماد يشير بالعودة إلى الرمل:

– تبدو مجهدا..

سرت بمحاذاة الترام إلى محطة الشبان المسلمين..

– قضيت اليوم في قرية السمارة.. على حدود الشرقية والدقهلية..

ملنا إلى شارع بورسعيد.. تصور سهومي متابعة، فأضاف:

– التقيت بالعمدة وشيخ الخفر والأهالي.. سألت عاملا في الجمعية الزراعية: كم راتبك.. قال: ثلاثة جنيهات.. سألته: كما تختلس..

– منطق غريب!..

– منطق بسيط!.. ثلاثة جنيهات في الشهر لا تطعم أرنبا!..

هل الحديث مناسبة للتغلب على ما أعانيه؟.. تقبل – بعد انتظار – علينا، ولعلها تكون في استقبالنا. حافية، أو تخلع الحذاء. يحادثها عماد، وتمد ساقها.. تتألق عروس البحر، فأسلم نفسي إلى الموج. أختار الزوايا واللقطات. أقترب. أحاول فألمس السحر. المعجزة التي تساوي حياتي كلها. أعلنت سوزان النجار رفضها لما أعده الخيال: لن أكون متسامحة في اتجاه نظراتك. معي – هذه المرة – عماد. عصا الحذر، في حقل الألغام، تستبق الأمان. أحاول، فلا تبين المشاعر الصاخبة عن فورانها..

قلت:

– أمثاله آلاف من العمال يتقاضون الأجر نفسه.. وربما أقل..

برقت عيناه بالغضب:

- لابد أن يسرقوا..

قلت:

- من المستحيل أن نحقق الثراء لثلاثين مليونا!..

بماذا يقدمني إليها: الزميل المصور؟. الزميل شاكر المغربي؟.. صديقي التاجر المعروف شاكر المغربي؟.. وماذا عن الكاميرا في يدي؟.. هل هي فنانة أو ربة بيت، أو أن عملها شرح قواعد التجميل؟.. كيف تنظر إلي؟.. وكيف يطلب مني ما يريده؟.. هل أصور ما يتراءى لي، أو اكتفي بمتابعة أوامره؟..

أخرست كل الأسئلة، فلا تجاوز مرافقتي له معنى التغيير، الفرجة على ما لم أتعرف إليه من قبل، التسلي بما يخالف طبيعة العمل الذي يضنيني..

قلت:

- حين تصل الضرائب إلى تسعين في المائة.. يجاوز الأمر معنى الضرائب، فيصبح إثارة متعسفة..

فاجأه تغير الحديث:

- طبيعي أن تقيد الثورة مصالح العشرات لصالح الملايين!..

تصنعت الدهشة:

- صرت شيوعيا!..

أشار، فأوقفت السيارة أمام البيت رقم ٥٦، وقال:

- لم تعد تشغلني تلك التعريفات!..

انقلاب في سوريا..

كيف؟.. ولماذا؟..

هبطت من السرير بتلقائية. تلفت في أرض الغرفة كأني أبحث عن مخرج. تأكدت أن صوت الراديو الترانزستور في أقصى مداه. خطاب عبد الناصر!.. دسست قدمي في الشبشب، وعدلت ياقة البيجامة، وخرجت..

كان اليوم جمعة. الشوارع خالية - أو تكاد - من المارة، وكناس الطريق يتأمل سيارة اصطدمت بعامود النور، قبالة المكتبة الأمريكية..

عندما جاوزت نقطة شريف، لمحت ابتسامتها الموحية. أدركت أني أنا المقصود. هدأت خطواتي، وتطلعت إليها،

بدت – بثيابها الأنيقة – غريبة عن الوقفة، والنظرات فلفني تردد..

أشارت إلى البيجامة:

– نمت في الشارع؟!..

ومض التألق في الحذاء المفتوح، فبدا المستحيل ممكنا..

تطور الأمر – مع استقراره – فأصبح مطلبا غاليا. ربما لا ألتفت إلى جسد المرأة، حتى في مقدمات العلاقة، أو أثنائها. يهمني تأمل البريق، التحديق فيه. تحددت له – في مخيلتي – مواصفات، تغيب مشاعري إن لم تتوافر: البطن الناعم، والأصابع الصغيرة، المستوية، المقلمة الأظافر، قد تضمر الرغبة لمجرد أن القدمين تخلوان مما أحبه. لم يعد يهمني الجنس إلا في ارتباطه بالوهج، بتلقائية حركة يدي، بالخيالات التي لا يحدها قيد..

وأنا أقاوم الانفعال:

– أتمشى بلا هدف!

قالت بهدوء:

– أين تسكن؟..

كأن عيني واجهتا كشافا باهر الضوء. تواءمت الدهشة، وتيقظ الجرأة، والحركات العفوية، وإن غصت في ارتباك لا حد له. نسيت الانقلاب، وعبد الناصر، وسوق سوريا، وتجارتي..

- أقيم بعد شارعين من هنا..

أضافت الجرأة من داخلي:

- هل تأتين معي؟..

حين تشرق الشمس في الأفق الغربي، فإن القرار الذي يرفض البديل: تحدي المجهول، الوقوف في نقطة الصفر، تمازج الواقع والحلم والأمنية. تجاوز سوء الفهم والدهشة والملاحظات المعيبة. كأن الأمر جزء من الكل، حلقة في السلسلة، إضافة الألوان والظلال إلى مساحة الصورة..

قررت أن تكون هي البداية، تلمست المدخل بكلمات، فالتمعت عيناها. بدت هادئة ومستكينة. تجرأت، فأقبلت عليها. الصمت يمتطي، فلا يبين الطريق – عبر النافذة – عن حركته المعتادة. أزحت الترابيزة التي تفصل بين مقعدينا. أهملت الالتماع في يدي، فلم أتركه. حاولت أن أكتم الصراخ؟، يظل الهدوء واجهة لمشاعري الصاخبة. في بالها

– أتصور – أن القدم مثل اليد، مثل الشفتين، مثل العينين اللتين غابتا في حلم النشوة. ترددت – في البداية – حتى لا تبين الأعماق عن مشاعرها. بإصبعي، جست في باطن التألق، فتألقت الفرحة في الملامح الهادئة. زادت جرأتي، فاعتصرت الضياء بأصابع نافرة. التمعت عيناها بمعنى التساؤل. قلت، لأطرد الدخان المكتوم في داخلي:

– اسمك؟..

– لا يهم!..

– مبسوطة؟..

– ماذا ترى؟..

لم يعد يشغلني المعنى، ولا الخوف من سوء الفهم، أضفت وأنا أدلك السحر:

– هكذا؟!..

تناهى صوتها من أعماق بئر:

– نعم.. هكذا!

تمنيت أن تدخل اللحظة في تواصل الأبدية. تقتطع ذاتها من الزمان والمكان، لكن نظراتها المتسائلة تحث على

الخطوة التالي، وإن كانت اللحظة وحدها شاغلي، مقطوعة الصلة بما قبل، وبما بعد. النظرات المتسائلة دفعتني إلى ترك البريق، وإن واصل الخيال عناق كنزه الغالي..

الصيف..

أحرص على جلسات المساء في بورصة النيل. أجلس على كرسي بالذات، خلف الترابيزة القريبة من المدخل، أتسند إلى الجدار، وأواجه شارع عبد المنعم الممتد أمامي. لا أحب تغيير المكان. قال لي عماد – ذات يوم – مداعبا:

– هل اشتريته؟..

قلت:

– الكرسي أو المكان؟..

– الاثنين؟!..

أعدت إليه السؤال:

– ماذا ترى أنت؟..

أطلق النقراشي شخرة محسوبة، وقال:

– إنه يرى.. إنك تتصور.. أننا في ضيافتك!..

استطرد ضاحكا:

لماذا لا تحاسب وحدك على ما تطلبه؟..

كنت أتابع المناقشات. أشارك بقدر ما تواتيني جرأتي. ربما مضت الجلسات، فلا أدلي برأي، أو أعقب. يشغلني الوافد الذي يأتي في هذه الأيام، يمتد بأيام الصيف كلها، أتسلل بالنظرات إلى أسفل، الصنادل والشباشب والأحذية المفتوحة، لا تشغلني الوجوه ولا ملامحها. تبدو النظرات كأنها السهوم، أو التحديق في اللاشيء. أؤكد الأمر بالاعتذار – بالشرود – عن المتابعة..

قال حسونة النقراشي:

– هذا الولد تلميذ تفوق على أستاذه..

سأل عبد الباقي خليل:

– ومن أستاذه؟..

ضرب على صدره باعتزاز:

– أنا!..

قلت:

– إني أحاول الاستفادة من عطايا عبد الناصر في اليمن..

من دروس النقراشي: أن أناقش المشروع جيدا، أحيط بجوانبه، أدرس توقعات الربح والخسارة، أضع نقودي في يد الطمأنينة. أذونات السيارات والآلات الكهربائية والمعدات، يبيعها الضباط العائدون من اليمن، أو المترددون عليها. تجد الأذونات مشترين في اليوم نفسه. الآلات والمعدات أعرضها في صالة المكتب، وقبالة دكان الحاج بخيت البشري – موقعي القديم – وأمانات لدى دكان أدوات منزلية في مدخل سوق الخيط..

أطل غضب في عيني عماد:

– تهذر؟!..

شملني ارتباك انكمشت الجرأة في داخلي، حرضتني نظرات النقراشي وعبد الباقي على الإجابة، فقلت كلاما كثيرا، وإن أفلحت في كتمه.. قال عبد الباقي في مجاوزة للصمت السادر:

– أفلحوا في اصطياد عبد الناصر في فخ اليمن..

قال عماد:

– كنا نعلم أن الذهاب إلى اليمن ليس نزهة..

قال عبد الباقي:

- ولماذا الذهاب في سكة الندامة؟!..

قال عماد:

- نحن نؤدي دورنا في تحرير اليمن من حكم الأئمة..

هتف عبد الباقي:

- نحررهم بالنابالم؟!..

مد عماد إصبعيه، ينتف الشعرة الوهمية:

- كذب!.. تدخلنا في اليمن نقله من القرن العاشر إلى القرن العشرين..

قال النقراشي:

- وما ذنبنا كي نأكل اللحم أربع أيام في الأسبوع؟!..

قال لي عماد عبد الحميد، وأنا أسحب كرسيا للجلوس عليه:

- عبد الباقي خليل في السجن.. مع أن القبض على عبد الباقي أصبح مثل الصورة الكربونية، يختفي ويظهر، ويظهر ويختفي، لا يغير من طبيعته إلا كلماته الساخطة، يقترن اختفاؤه بتوالي الأحداث المثيرة.. مع ذلك، فقد سألت في دهشة حقيقية: لماذا؟..

كان الجو السياسي راكدا. أحاديث السياسة – في سطور حياتنا – كأنها الهوامش. وكان عبد الباقي مشغولا بالبحث عن مخزن يسع صفقة أسمنت من اليونان، وقلت مشاركاته لنا، حتى في الأحاديث التي تتناول أمورا عادية.

– قاطع إمام مسجد أبي العباس.. قال له: حدثتنا عن ظروف اعتقال الشيخ عاشور!..

الشيخ عاشور!؟.. قرأت عن ثورة أعضاء مجلس الأمة عليه. ناوش وشاغب وهتف بسقوط رئيس الجمهورية. أعرفه ولا يعرفني. ألتقي به أحيانا في شوارع بحري، فيشير مرافقي: هذا هو الشيخ عاشور!. بدا كالأسطورة في كلماته الرافضة بمجلس الأمة، وإن لم يبد عليه أن يلحظ النظرات التي تتطلع إليه..

أضاف عماد:

– في اليوم التالي ألقي القبض عليه في شارع الميدان، قبل أن يبلغ دكانه..

قلت، ربما للتهوين أو للفرار من التعقيب:

– لم يعد عبد الباقي يطيق الابتعاد عن لوكاندة السجن!..

وفي اليوم الرابع، سبقنا عبد الباقي خليل إلى بورصة النيل. بدا – كعادته – عازفا عن التحدث فيما جرى، فأعفانا من حرج الأسئلة..

– هذه الفتاة حافية القدمين.. ألا تسيء إلى صورة مكتبك؟!..

لم يكن عماد عبد الحميد يدري السبب. ولم تكن السكرتيرة الجديدة كذلك تدري. كان التأكد من حبس المارد في قمقمه، حرصي الأول. لا أسمح بأن يطل على الآخرين، أو يتعرفوا إلى ملامحه. الشرخ بداية الانهيار الكامل. القبول بالتنازلات الصغيرة ثغرة، تتسع، فينفذ منها كل شيء..

بدا التألق جميلا في الحذاء ذي الكعب العالي، قررت أزواج بين سرية السر، والمشي – دون حرج – في الغابة المفعمة بالزهور..

قال أبي:

– أفرج عن قدميك!..

أضافت أمي في تأكيد:

– يظل الحذاء في قدميه إلى ما قبل النوم..

- مع ذلك، فإنه كلما عاد من الخارج، تأمرينه بغسلهما!..

- لأدفعه إلى الإفراج عنهما..

وعلا صوتها منذرا بصدام وشيك:

- يضايقك أني أنفذ ما تطلبه الآن منه!..

قلت:

- أنا الذي طلبت منها نزع الحذاء.. لاحظت أن الكعب العالي يمزق السجاد..

التمعت عيناه بتساؤل:

- ولماذا لا ترتدي حذاء بلا كعب؟..

وأنا أغالب التوتر:

- هذا شأنها..

استطردت في تنبه لحجة أخرى:

- الهدوء عموما يساعدني على التركيز..

وفي مجاوزة للحديث:

- قررت أن أتبرع بمبلغ لبعض المشروعات الخيرية في الحي.. فما رأيك؟..

قال كالمفاجأ:

- عظيم.. والسبب؟..

قلت في ضيق:

- إذا كان لخلع السكرتيرة حذاءها أسبابه.. فهل لابد لكل شيء من أسباب؟!..

لم يجاوز هدوءه:

- تعني أن بحوزتك أموالا لم تعد في حاجة إليها!..

وأنا أغالب الضيق:

- ولماذا لا تقول إني أريد التبرع ببعض أموالي لوجه الخير؟..

ضغط بأسنانه على جانب فمه كالمتذكر، وقال:

- لم تفعلها من قبل..

قلت بحسم:

- قررت أن أفعلها الآن..

قال لي حسونة النقراشي:

- أنت لن تستطيع أن تفعل شيئًا بمفردك.. استعن بمن تستطيع الاستعانة به من المسئولين..

أضاف وهو ينقر المكتب أمامي بإصبعه:

- إذا أردت أن تحمي تجارتك.. فليكن ذلك بالانضمام إلى السلطة..

ضايقتني بسمة سخرية، رافقت كلماته:

- أصبح وزيرا؟!..

- لا أقصد!..

استطرد متسائلا:

- هل أنت عضو في الاتحاد الاشتراكي..

- طبعا..

- إذن.. حاول أن تصعد إلى مناصبه القيادية..

كان النقراشي معلمي في التجارة. تعلمت منه وسائل البيع والشراء. الفارق بين الدولار والإسترليني وأحوال السوق، الفوز بالمناقصة، والوقوف في حد المزاد. قيد الحسابات، ومحاسبة الضرائب، وإجراء الخصومات، وتبادل المكاتبات، والدعوات الخاصة في سيسل أو فلسطين..

مع ذلك، لم أكن أخشى النقراشي، وإن علمني التحوط من الآخرين. يكتفي ببذل النصيحة والتوجيه والإشارة إلى الطريق، فلا يحاول السير فيه. اختار المقاولات مجالا

وحيدا. يعمل من داخل القطاع العام في عمليات محـــددة، لا يبدأ عمليتين في وقت واحد، وربما مضت أشـــهر دون أن يتعاقد على عملية ما. فضل أن يكون بيته مكتبه، فهو قـــد جعل مراسلاته عليه، باسمه الشخصي، دون إعلان شركة. وحول غرفة في مدخل شقته الأرضية إلى مخزن للمعدات..

كان يدهشني تحريضه لي على الفرص التي يهملهـــا. أتردد، ثم أجازف – بالجرأة الكامنة، وتحريضـــه – فتـــأتي النتائج كما توقع. ترددت في التعاقد على نقل باخرتي قمـــح إلى شونة ستاني بالورديان. قال: لا تفلت هـــذه الفرصـــة. قلت: لماذا لا تتعاقد أنت؟.. قال في بساطة وصـــدق: إنـــي اكتفي بالمقاولات من الباطن..

لم تكن تشغله السياسة إلا إذا أثيرت أحـــداثها أمامـــه، يبين عن متابعته لنشرات الأخبار في الإذاعة والتليفزيـــون، وأحاديث الجلسة المسائية في بورصة النيل (بـــدت تقليـــدا ثابتا نحرص عليه كلما أسعفنا الوقت) وكان يحرص علـــى مشاهدة أفلام السينما، وبرامج التليفزيون، ولعب الشطرنج والطاولة، ويعـــد نفســـه المشـــجع الأول لنـــادي الاتحـــاد السكندري. أتبينه من بعيد، وفي الزحام، بشعره الأبـــيض

الذي يناقض عقده الرابع، والبنطلون "الووتر بروف" يضيف إليه في الشتاء "جاكت" من النوع نفسه، فهو يكاد لا يرتدي بنطلونا أو بدلة عادية...

كيف أحقق نصيحة النقراشي؟..

كان لابد أن أستند إلى جدار. عماد عبد الحميد يتحدث عن أبيه الذي لا يزال يعمل رغم المعاش، وعن سفر إخوته الثلاثة إلى وظائف في الخليج. النقراشي يلجأ – أحيانا – إلى عائلته في إيتاي البارود. لها عقارات ومزارع موالح وروابط أسرية ومصاهرات، ومناصب جيدة للمتعلمين من أبنائها، عبد الباقي خليل لم يعد في حاجة حتى إلى تجارة أبيه، كأنه الشجرة التي تمتد جذورها إلى أعماق مجهولة. الحاج بخيت البشري اطمأن إلى تجارته، وتقدم سنه، واشتغال أبنائه بوظائف محترمة..

عماد عبد الحميد أول من اتجه بالي إليه، تحقيقات وأخبار، حتى من النوع الاجتماعي الذي يتناول عضوية الأندية، التبرع للجمعيات الخيرية، المشاركة في المناسبات العامة.. شاكر المغربي.. شاكر المغربي.. يتردد الاسم كثيرًا، يعلق بأذهان الناس، تلازمه الصورة أحيانا، يطمئنون

إلى أن الذي نعرفه خير من الذي لا نعرفه، الابتسامة، أداء صلاة الجمعة في مساجد الحي، تخصيص كأس للأندية الشعبية، الإفادة من العلاقات الشخصية في حل مشكلات الآخرين. تقترب المسافة إلى تحقيق الحلم الذي كان جسرا للحلم الأكبر: أتحرك وأفيد، أحقق الصعود والمكانة والشخصية العامة، أتعرف إلى تفكير القيادة وما تعده من خطوات. أسند ظهري إلى جدار، وأطمئن إلى وضوح الطريق..

قلت لعماد:

- إذا كانت الاشتراكية هي العرف السائد، فلابد أن أصبح اشتراكيا!..

قال عماد عبد الحميد:

- أغلقنا اليوم خليج العقبة..

أضاف:

- بهذا أزلنا ما تبقى من عدوان ٥٦..

اتجهت إليه بنظرة متسائلة:

- وما دخل ٥٦ بما يجري الآن؟..

خلع الجاكتة، وأسندها إلى كرسي بجانبه:

- كان الحصار البحري في البحر الأحمر قائما إلى تلك الأيام.. وإغلاق خليج العقبة معناه إعادة فرض الحصار..

قلت بدهشة:

- هذه معلومة جديدة..

- قديمة.. ولكن كانت الأوامر صارمة تناول ما حدث..

- لماذا؟..

أسند قبضته المتكورة على الترابيزة، وقال:

- كيف نحتفل بالنصر وإسرائيل هي التي كسبت من رفع الحصار؟..

قلت في قلق:

- الحرب قادمة إذن؟..

تعرفت - للمرة الأولى - إلى حقائق لم أكن تعرفت إليها من قبل. غيرت ما كنت ألفته. لم تعد أركان الاقتصاد وصفحات الحوادث، أول ما أقرؤه في الصحيفة - (حرصت على شراء الصحف الثلاث) أقرأ العناوين والأخبار في

الصفحة الأولى، أبحث عن البقية في الصفحات الداخلية، أتأمل وأسأل وأناقش وأحاول الفهم..

عقد عبد الناصر مؤتمرا قال فيه: لدينا أعظم قوة ضاربة في الشرق، وفي قدرتنا محاربة إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل، أعجبني رده على سؤال: صحتي جيدة، ولست "خرعا" كزعيمكم..

وقال عماد عبد الحميد:

– أرأيتم؟.. شدد عبد الناصر على قوتنا العسكرية..

لم أخف قلقي:

– ولكنه أكد بأن مصر لن تكون البادئة بإطلاق النار..

قال عماد:

– إلا إذا قامت إسرائيل بالهجوم على سوريا..

لما أعلن قرار الاستعداء العام في مايو ١٩٦٧ أهمل النقراشي فنجان القهوة واتجه إلينا بعيني الدهشة:

– ألستم مواطنين؟..

أضاف للنظرات المتسائلة:

– هل تخلفتم أم أن الجيش نسي؟!..

قلت:

– ادخل أنت أولا.. ثم نتبعك!..

قال النقراشي:

– أكتفي بمشاركتي في انسحاب ٥٦..

قال عماد:

– أنا اكبر أخوتي.. وأظن أن عبد الباقي كذلك..

قلت:

– أنا لست الأكبر ولا الأصغر.. أنا كل أسرتي!..

كان أصدقاء المقهى يأتون من حياتهم، ويعودون – بعد جلساتنا – إليها نفترق في المقهى، أو نسير إلى ميدان المحطة، فنفترق. حتى عماد عبد الحميد يتجه إلى جريدته. أعود إلى الشقة بمفردي وكنت أشعر – أحيانا – أني بلا أهل ولا أصدقاء ولا هوايات، وأن كل من ألتقي بهم وأجالسهم، علاقات عابرة، أو زمالة عمل. وربما داخلني إحساس بالوحدة وأن الحياة الخاصة لأصدقاء المقهى – وزملاء المهنة أيضا – تفصلني عنهم، بوسعهم أن يتحدثوا عنها. لا يختارون الكلمات، ولا يخشون الخطأ، أو التنبه إلى ما

يخفونه، وأنا أعاني الوحدة في دنياي الواسعة، الضيقة. أحرص على رتاج أبوابها ونوافذها، أتطلع منها، فأحاذر أن يتعرف أحد إلى موضعي. وتنبهت – ذات صباح – أني وقفت على شاطئ الميناء الشرقية، قبالة تمثال سعد زغلول، ألقي بقطع من الحجارة، تناثرت فوق الكورنيش، وأردد – بعفوية – أسماء: عماد.. النقراشي.. عبد الباقي.. البشري.. تنبهت، فلم أناقش – بيني وبين نفسي – ما قلت، وإن نفضت يدي، وسرت إلى مكتبي..

تذكرت أني عانيت – في الليلة السابقة – من التهاب في عيني. ملت إلى صيدلية سيدي المتولي بشارع عبد المنعم، وطلبت قطرة..

قالت البائعة محذرة:

– حاسب عليها.. الأدوية تتجه الآن إلى المجهود الحربي..

قال رجل يزن نفسه في مدخل الصيدلية:

– كلها أيام.. وينتهي موال إسرائيل!..

سألت البائعة في عصبية:

- من أين استقيت معلوماتك؟.. إني مستمع جيد للإذاعة.. وقارئ جيد للصحف..

ظلت الفتاة على لهجتها المتوترة:

- استمع إلى إذاعة لندن أو صوت أمريكا.. لتعرف أن اليهود وصلوا إلى الضفة الشرقية للقناة..

والطائرات التي تهوي بلا عد، والانتصارات المتوالية، والقوات المشاركة من كل البلاد العربية، وتهديدات أحمد سعيد، وأغنية فايدة كامل "خللي الصقور الجارحة تنهش لحمهم"، وأغنية عبد الحليم حافظ "ولا يهمك يا ريس" وتأكيدات الصحف بأن القتال يدور في قلب إسرائيل، وعمليات الصاعقة التي بلغت الحدود الأردنية؟!..

كنت - تلك الأيام - أتعرف إلى جوانب - تصورت أنها لم تعد تشغلني. السياسة!... لم تعد ضمن اهتماماتي، أو تثير انتباهي بصورة فعلية، إلا حين يتعالى إيقاع الأحداث، فتشد انتباه الجميع. التطورات فرضت نفسها. شاركت فيها بالجواب، وإن لم أحاول السؤال. أعدت ما استمعت إليه في جلسة المساء، أو من عملاء المكتب. شاركت في المناقشات، وترتيب الأحداث، والاستنتاج، والتوقع..

بدت الصورة – بتوالي الأسئلة والأجوبة والنقاش وتباين الآراء واضحة، فقلت برأيي الواضح. غمرني شعور، لم أناقشه، ولم أقو على كتمه، بتوالي الانتصارات. سرت في داخلي فرحة الناس، فشاركت فيها. دهشت لما تبينت أني أهملت فتح المكتب لحديث في بورصة المنشية عن تطورات الأحداث، وصورة المستقبل..

قلت: والدواء معلق بيني وبين الفتاة:

– الكذب وارد لو أن مصدر الأخبار إذاعة إسرائيل..

قال الرجل الواقف في مدخل الصيدلية:

– أنا لا أثق في الإعلام الغربي..

قالت الفتاة:

– المصيبة أننا نعيب على النعامة دفن رأسها في الرمال، ونمارس الفعل نفسه..

عدت إلى البيت. استلقيت على السرير بثيابي. تأملت السقف والجدران. لاحظت أن مرآة التسريحة في زاوية تبعد عن اتجاه نظراتي. عدلتها، فأصبحت في مواجهة السرير. تأملت نفسي وأنا أنزع الثياب. تجردت تماما.. بدت قدماي متسختين من الصندل الذي لم أنزعه طيلة النهار. أغمضت

عيني، وفتحتهما. طالبت كلوديا كاردينالي أن تنزع حذاءها، وتدني التألق من عيني. البريق يفيض في خطوات بريجيت باردو على رمال الشاطئ. مددت أصابعي، فاعتصرت وميض فتاة الصيدلية. هتفت في سيدة الشقة المقابلة: تعالي فشوقي قديم!.. علت الإيقاعات، وتماوجت. توالت الصور وردية ورمادية وباهتة الملامح. كأنها – بتحقق الرجفة – لم تكن. أحسست بإرهاق، فسحبت الغطاء على جسمي، ونمت..

تسل رنين الجرس إلى أذني كحلم. بدد الصمت في تواصل، فصحوت. تبينت عريي، فالتففت بالملاءة. بدا عماد عبد الحميد في وقفته أمام باب الشقة، كأنه قد أضاف إلى عمره سنوات:

– أرأيت؟!..

– ماذا؟..

– الهزيمة؟!..

– هل عرفت؟..

– لم أغادر أجهزة التلكس.. هزيمة قاسية!..

– ماذا تتوقع؟!..

- غادرت الكارثة حدود التوقع..

- لم يكن حتى المتشائمون يتصورون ما حدث..

تابعني صوته في طريقي إلى الحمام:

- المصيبة حلت بنا، وانتهى الأمر..

أضاف في تذكر:

- عبد الناصر سيتحدث اليوم..

تساءلت، لمجرد أن أتكلم:

- اليوم؟..

- نعم.. نحن نواجه مؤامرة دولية!..

- لا!..

صرخ عماد عبد الحميد في عصبية، تملكته رعشة، فبدا كمحموم، لم يكن عبد الناصر قد أتم حديثه، وإن كان قد أعلن اعتزاله، وإسناد الرئاسة إلى زكريا محيي الدين..

- يتخلى عن البلاد في قمة مأساتها؟!..

بدا مذهولا وخائفا. هل هو الحرص أن يظل عبد الناصر في موقعه، أو هو الخوف من المجهول؟..

لم يكن عماد عبد الحميد يخفي حبه لعبد الناصر. أبانا الذي في منشية البكري. علمتنا ما لم نكن نعلم: الثورة والاشتراكية والتأميم والمصادرة والسجون والمعتقلات. أخشى أبي لقسوته، ومن الصعب ألا أحبه. عبد الناصر أبي. جيلنا يخلو من الآباء ما عداه. الكل ظلال وأشباه رجال، يأمر فينفذون، يتخذ القرار فيبادرون إلى توضيح مزاياه، يتقدم فيسعون وراءه، حتى أحاديث الهمس تصبح – في العلن – تأييدا وتصفيقا لكل أقواله وتصرفاته..

مع ذلك، فقد ظل عماد بعيدا عن التنظيمات السياسية. لم ينضم إلى هيئة التحرير ولا الاتحاد القومي أو الاتحاد الاشتراكي. حتى منظمة الشباب لم يحاول الانضمام إليها في أعوام الجامعة..

أسأله:

– ألم تحاول الانضمام إلى أي تنظيم؟..

– هل انضم كل المصريين إلى تنظيمات؟..

– لكنك صحفي.. ولك آراؤك السياسية..

– اكتفي بعضوية نقابة الصحفيين.. أما آرائي، فانا لا أميل إلى وضعها في إطار!..

قلت:

- تحدث عن إصرار الغرب على إسقاطه.. ربما أراد تفويت المؤامرة..

قال وهو يغالب الذهول:

- فلماذا لم يعتزل في ٥٦؟.. كنا نحارب ثلاث دول لا دولة واحدة..

علا صوته في تأكيد:

- ما نحياه ليس حقيقة..

وهو يضرب جانب المقعد بقبضة متشنجة:

- كابوس!..

تحركت – بعفوية – في اتجاهه. اصطدمت قدمي بأسفل الترابيزة. أحسست كأنما استحال الألم في الإبهام نارا في رأسي. قاومت رغبة مفاجئة في الغثيان. عدت – بكل جسدي – إلى المقعد ورائي. نسيت عبد الناصر والاستقالة والخوف. كرهت حتى الهستيريا التي تملكت عماد، كأنه يعاني اجتذاب دوامة، يتهيأ للموت، أو لما هو أقسى..

اندفع إلى الشارع، وأنا وراءه، هبط السلم، فلم ينتظر المصعد الذي كنت طلبته. الشوارع في غير صورة الصباح: الظلام يلف كل شيء، المقاهي خالية، الدكاكين مغلقة، أمواج الناس تأتي من محرم بك والباب الجديد وكوم الدكة ومحطة الإسكندرية. المصب – فيما يبدو – ميدان المنشية، تلتقي المجموعات في جماعة واحدة، كأنها سيل لا تدري أين مبدؤه في الأزقة والحواري والشوارع الجانبية، الطوفان رءوس تتدافع إلى شارع شريف، حشود أضخم مما رأيته في حياتي، أضخم حتى من تلك المظاهرات التي كانت تمر أمام بيتنا – أيام الإنجليز – في طريقها من شارع عبد المنعم إلى كوم الدكة، تردد الهتافات ضد الإنجليز والملك والزعماء السياسيين، تغني: بلادي بلادي.. لك حبي وفؤادي.. تتشابك الأيدي، وتتلاصق الأكتاف، وتتجاور الخطوات إلى أمام.. هذه أمواج متلاطمة، متلاحقة، تلاصقت وتلاحمت، فلم يعد إلا رءوس تتمايل بالهتافات..

كنت – بمفردي – في بحر المظاهرات الغاضبة، أناقش وأهتف وأصرخ، أطالب عبد الناصر بالعدول عن قراره. لم أكن أنا أنا. توارى الخجل الذي ألفته. فرضت الاندفاعة

نفسها لا يحدها قيد. أي رئيس قادم لابد أن يكون أخف قبضة منه. لم أحاول أن أناقش المسألة على هذا النحو، لم أحاول أن أناقشها على أي نحو. تدافعت مع الجموع المتلاصقة، الزاعقة، الخائفة، إلى مبنى الاتحاد الاشتراكي بميدان المنشية..

وجدت نفسي – صباح اليوم التالي – قطرة في محيط البشر، أطل – من بعيد – على مبنى الاتحاد الاشتراكي. الجموع تملأ الميادين والشوارع والحواري والأزقة. الهتافات متداخلة، فلا تبين إلا عن أصوات هادرة، متآلفة، أي ناس هؤلاء؟!.. حتى ورقة التوت أطاح بها الإعصار من الجسد العاري. الدكاكين ثبتت المؤشرات على محطات مونت كارلو ولندن وصوت أمريكا، فلابد أن الكثيرين من بينهم يعلمون بكل ما جرى. يأس أم لا مبالاة أم تحد؟!.. الموجة ينحسر بها الجزر، فيغيب تألق المياه في رمال الشاطئ. يأتي المد – من بعد – هادرا مزبدا، تغيب في داخله الرمال والأصداف والطحالب..

لم أغادر – والآخرون – أماكننا، إلا بعد أن علا صوت في الميكروفونات المبثوثة بالميدان، أن عبد الناصر سـيبقى

"حتى تنتهي تلك الفترة التي نتمكن فيها جميعا، أن نزيل آثار العدوان، ثم يطرح الأمر كله على الشعب ليقول كلمته"..

قال الحاج بخيت البشري:

– لو أننا كنا نعرف ما رواء التنحــي.. كنـــا طالبنـــا بمحاكمته بدلا من عودته!..

كان الحاج بخيت البشري وفديا قديما، سمى أبناءه صفية وسعد ومصطفى ومكرم. أغلى ذكرياته ضياع العمامة في المظاهرات التي استقبل بها مصطفى النحاس في عودته من أوروبا. عاد إلى بيته، فاكتشف ضياع العمامة في انشغاله بالهتاف بحياة الزعيم..

بدا غير مصدق، لما أخبره عبد الباقي خليل بوفاة النحاس. عاد إلى الجريدة ليتأكد من الخبر. زاد حزنه للسطور القليلة، والأخيرة، في حياة زعيمه الأثير. مات آخر أجيال العمالقة. أرواحنا الآن في أيدي صبية عابثين. عاد من القاهرة. فروى أنه استطاع أن يخطف – مع قدامى الوفد وشبابه – نعش النحاس من أيدي رجال الشرطة، والشبان الصغار هتفوا باسم الزعيم الراحل، لم يعرفوا النحاس، ولا أعوام زعامته، ولكنهم خرجوا في جنازته، يهتفون بحياته..

علا صوت البشري في تأكيد:

– المظاهرات نادت بالعدول عن التنحي.. لأن الناس لم يعلموا وقتها بحقيقة ما حدث..

قال عبد الباقي خليل:

كسبت إسرائيل بالوصول إلى ضفة القناة أمانا أبديا.. المستحيل الآن هو التفكير في العبور إلى حيث كنا..

أضاف:

– فلندفع إلى الأبد ثمن هروبنا!..

ماذا حدث؟ ولماذا؟ وكيف: ومن المسئول؟.. عشرات الأسئلة تعالت كألسنة اللهب. دوامة الأحداث اجتذبت الجميع. تلاغطت الأحاديث، وامتدت، وتشابكت. تباينت الآراء والأخبار والتعليقات: قصف الطائرات الإسرائيلية ممرات الإقلاع، وعجز الطيارين عن ملاقاتها. تحطم الطائرات – بالموجة الثانية – دون أن تغادر الأرض، حفل الطيران الساهر ليلة الكارثة، إفطار الطيارين في الثكنات دقائق المباغتة، تحديد عبد الناصر لقياداته موعد الضربة المقبلة. لكن المفاجأة تحققت، حتى القيادة العليا، فاجأتها الضربة وهي معلقة في سماء سيناء.. قولوا لعين الشمس ما

تحماشي.. أحسن حبيب القلب صابح ماشي.. أغنية أحببناها في القديم، كرهناها في الأيام الحزينة. إذاعة إسرائيل تعيدها مرات في اليوم الواحد. مئات الجنود بثياب الميدان، تكررت رؤيتي لهم في القاهرة، مثلما تكررت في الإسكندرية، على الأرصفة، وفي الحدائق العامة، وفي أسطح القطارات، وفوق سيارات النقل. ما حدث أكبر من الانسحاب، والاستقالة، والهزيمة نفسها. الصفعة قاسية. الأقسى أنك لا تستطيع أن ترد عليها. الاستعمار الإنجليزي عرفناه. أفلحنا في مقاومته حتى خرج. ماذا عن الاستعمار الجديد؟.. مصر دخلها اليهود، يهود العطارين والرمل والظاهر. اجمع الكوتشينة، وأعلن هزيمتي. بماذا تحكمين؟ تقول سارة، ابنة الأسرة اليهودية في الطابق الأول لبيتنا: كأنك تتعمد الهزيمة لأضربك على قدميك! أهلل لانتصاري، وأحكم بالضرب. تمد حذاءها ضاحكة، أصر، فتنزع الحذاء، والجورب وتمد ساقها. أنشغل عن تناول العصا، والضرب، ونظرتها المتسائلة، والأولاد والبنات الذين يشاركوننا اللعب، أحدق في الضياء القريب، تدنو الرائحة التي لا يخطئها أنفي، أعجز

عن فعل شيء. تثني ساقها، وتزوم في استياء: أنت لا تريد أن تضرب!..

تناولت التعليقات والنكات كل إنسان، وكل شيء، حتى عبد الناصر الذي بدا الناس على استعداد للموت كي يعود إلى منصبه، لم يسلم من النكات القاسية..

أذهلني ما أعلنه الحاج بخيت البشري من التشفي لما حدث: ادفعوا ثمن إيمانكم بالطاغوت!. بدا مغايرا لأصدقاء بورصة النيل. شعور الأسى لف الجميع. تحددت المناقشات فيما جرى؟. أعلنت الأسرار والتوقعات. طالب حسونة النقراشي بالكف عن أحاديث السياسة. من يخوض سيرتها يدفع غرامة. نحاذر في البداية. ينفرج الباب بعبارة تأتي عفوا تتلاحق التعقيبات والآراء. حتى النقراشي نفسه يتنبه أنه قد شارك فيما طالبنا بالكف عنه..

وكنت – أحيانًا – لا أدري أي الأفكار يجب أن أنتمي إليها.. حتى آراء عبد الباقي خليل، كنت أجد فيها ما يوافقني، وإن تضايقت من قسوة عباراته وملاحظاته في أشياء لا دخل له بها. كلمات النقراشي هي الشرارة، المدخل، لكل تصرفاتي التالية، ما أضفته إلى أعمالي وحذفته منها. أطمئن

إلى نصائحه، يزيد من اطمئناني أنه لم يكن يطلب شيئًا لنفسه، لا مشاركة ولا عمولة ولا مجرد كلمة شكر، كأنه ينصحني بالفعل الذي لا يعنيه أن يفعله. عماد عبد الحميد أقدرنا على مناقشة عبد الباقي خليل. نختلف مع معظم آرائه، لكننا ننصت إليه. تجد في طريقة حديثه، واختياره للكلمات، والهدوء الذي لا يفارقه، ما يدفعنا إلى الإنصات. نناقشه، نعلن اعتراضنا، نرفضه، وإن ظل في أعماق كل منا تأثيرات مما قال، يصعب مغالبتها، الحاج بخيت البشري ينقلني إلى أيام لا أتذكرها جيدا، تبدو – بأحاديثه، وهلاميات التذكر – أفضل من التأميم، والمصادرة، والاشتراكية، والتنظيم الواحد..

قال عماد عبد الحميد:

– سهرت أمس في سماع تسجيل الأغنيات الشيخ أمام..

قلت مصححا:

– المشايخ يقرعون القرآن..

قال عماد:

– كل البيوت الآن بها شرائط للشيخ إمام.. إنه مطرب الفترة..

قلت:

- هل يعد الناس بالانتصار؟..

قال عماد:

- بل يحدثهم عن الهزيمة!..

قال عبد الباقي خليل:

- نسي الناس الهزيمة في خرافة ظهور العذراء فوق كنيسة الزيتون!..

قال عماد:

- للديكتاتورية نتائجها المدمرة!..

تساءل الذهول:

- أنت بهذا تدين عبد الناصر؟!..

امتد إصبعاه إلى الشعرة الوهمية:

- حبي لعبد الناصر لا يلغي حقي في نقده..

قلت:

- هل فقدت إيمانك بالرجل؟..

في نبرة متعثرة كأنه يهم بالبكاء:

- الهزيمة قاسية.. ولا نستحقها!..

لاحظت أن عماد كان يكثر من شرب الماء، فسألته:

- هل أكلت طعاما مملحا؟..

قال:

- أبدا.. الجفاف في حلقي من أيام..

قال البشري:

- هل أجريت تحليلا؟..

دون أن يغادر هدوءه:

- لماذا؟.

قال البشري:

- ربما السكر!..

هتف النقراشي:

- بلا سبب؟!..

قال البشري:

- دواعي الإصابة بالأمراض هذه الأيام كثيرة!..

أطلق عبد الباقي خليل لحيته للمرة الأولى، فأبديت دعابة لا أذكرها. أهمل معنى الدعابة: (أطلقوا لحاكم وأحفوا شواربكم)..

قلت:

- كارل ماركس كان يطلق ذقنه!..

ثم جاوزت الدعابة إلى تأكيد الرأي:

- كنت أتصور أن الدين شيء آخر!..

قال:

- صورة الدين تختلف عما في مخيلتك..

لم أكن أسأل عبد الباقي خليل، أين كان ولا من أين جاء. يغيب فلا أفطن لغيابه، حتى يفاجئني - ذات يوم - بمسحة الحزن في وجهه، فهو نادرا ما يضحك أو يبتسم، أو يشارك في مداعباتنا، على باب المكتب، أو في الجلسة المسائية ببورصة النيل. يعبر - بالبساطة نفسها - أزمة إلى أخرى، يضبط أمام البوصيري أو أبي العباس أو القائد إبراهيم يعترف بحوزته لمنشورات، أو بتوزيعها على المصابين، أو بتحريضه ضد النظام. ألف جيرانه هرولة الأقدام في صعودها إلى شقته أعلى البيت، يفتح الباب في هدوء، ولا يقاوم. يغيب أياما أو شهورا. تظل الشقة مغلقة. يعلم الجيران بعودته من سماع خطواته في صعودها وهبوطها على السلم. انضم إلى الإخوان المسلمين، قبل أن

يلقي عبد الناصر القبض عليهم. لم يعد للإخوان بعدها على لسانه سيرة، وإن قال – ذات مساء، في نقاش مع عماد عبد الحميد:

– هجرت الإخوان بلا رجعة منذ بدءوا في تقديم تنازلاتهم!..

وواصل التردد على المساجد، وحمل الكتب الدينية، وكان دائم الحديث في أفكار سيد قطب. بدا الرجل في أحاديثه أسطورة أو كالأسطورة. صفة الإمام الشهيد تسبق اسمه، ويحفظ فقرات كاملة من كتاباته..

عبد الباقي خليل صديقي، وإن ألمحت للعقيد كامل مرسي ضبط مباحث اللبان، برفضي لآرائه ونشاطه. لم تكن له في نفسي تلك المودة التي أكنها لعماد عبد الحميد. عماد طفولتي ونشأتي والأسرار التي لا يعرفها أحد، المذاكرة واللعب في شارع علي مبارك: السيجة وعنكب يا عنكب وأولها إسكندراني والنحلة والبلي، والفرجة على تكية الميرغني، وقراءة الفاتحة لسيدي أبي الدرداء، ومرافقة الجنازات إلى مقابر العامود، والتمشي إلى محطة الإسكندرية وكوم الدكة، ودخول حفلات العرض المستمر في سينما

الدورادو، والجلوس في مدخل البيت، وعلى البسطة المواجهة لشقتنا، ومتابعة حركة البواخر في الميناء الغربية..

تعرفت إلى عبد الباقي خليل في مسجد العطارين. شجعني أبي على أداء الصلاة عندما كان يذاكر لي آيات القرآن والأحاديث وتعاليم الدين. الهدوء الذي يسم إجاباته على أسئلتي يغريني بالسؤال. نصحني بالصلاة. فهي تجيب على كل ما يشغلني. كنت ألتقي بعبد الباقي، يرتدي جلابية بيضاء، ويغطي رأسه بطاقية، ويدس قدميه في بلغة.. نغادر – وشبان آخرون – المسجد إلى الشوارع المحيطة، نتحدث في كل ما يفد إلى خواطرنا، يحيط بإعجابه حسن البنا والهضيبي وعودة وسيد سابق. تسري في وجهه حمرة، وتزداد التقطيبة، ويبدو الغضب ارتعاشة في أصابع يديه، إذا وطئ الحوار ساحة الدين، أسهل الاتهامات وصف محدثه بالكفر.

أقول:

– جادلني!..

يعلن دهشته:

– وماذا أفعل الآن؟..

- أنت تشخط في!..

كان يتحدث بلا تفكير. ثم يفكر بعد ذلك فيما قال. وربما يتكلم فيتصور أن المعنى الذي أراده، لم يفهمه محدثه جيدا. يعيد الكلام، رواية ما حدث، أو التعبير عن وجهة نظره، بكلمات أخرى. ويخشى من أن محدثه يريد التوضيح، فيزيد من كلامه، ويزيد. وربما تحدث في جوانب أخرى لم نكن نناقشها..

ورث تجارة أبيه - الحاج خليل الدخاخني - في أول شارع الميدان. في خطواتي الأولى لجأت إليه. ترك لي بضائع أمانة، أبيعها بعمولة. تقاسمنا - فيما بعد - مع تجار آخرين، بضائع عجز الوكلاء عن دفع أثمانها..

روى عن غياب الدين، وفساد المجتمع، وقال:

- لقد جربنا اللجوء إلى أمريكا فلم تساعدنا.. وجربنا اللجوء إلى روسيا، فخذلتنا.. فلماذا لا نلجأ إلى الله، ولو مرة؟!..

وحين أطلت الأزمة الاقتصادية بنذرها، قال عبد الباقي خليل:

- الزكاة كفيلة بحل المشكلة، لو أنها طبقت بصرامة..

- تكون إجبارية إذن؟!...

- هذا هو النظام الإسلامي..

ولما صدرت الأحكام ضد قادة الطيران، وجد في مظاهرات الطلبة ما يستحق المؤاخذة:

- الناس لم تفهم رسالة المحكمة.. الهزيمة مسئولية القيادة السياسية.. ولهذا خففت الأحكام!...

أضاف في تأكيد:

- ما حدث لم يكن إهمالا من تحت، وإنما كان خيانة من فوق!..

وعين حسين الشافعي رئيسا للمحكمة التي تولت محاكمة جهاز المخابرات، فقال:

- فعل الشافعي ما فعله المصريون منذ فجر تاريخهم.. اكتفى بالفرجة فعاش!..

وعقب على إعلان وفاة المشير:

- سواء قتل أو انتحر.. فقد كان ورما ينبغي استئصاله!..

وقلت له – ليلة – في ضيق:

- لماذا تعطي لنفسك حق الوصاية على حياتي؟..

أضفت للتساؤل القلق في عينيه:

- أنت تدعو لشيء أرفضه.. فلماذا تريد فرض دعوتك بالقوة؟..

قال:

- أريد أن أنقذك من ذاتك!..

أردف:

- حتى الهزيمة أفلحت في استثمارها.. أموالك تزيد بإقامة المخابئ والخنادق والسواتر الحائطية أمام البيوت!..

اكتفيت - لتحرك الفضول في داخلي - بنظرة تساؤل. أضاف عماد عبد الحميد وهو يجلس قبالة مكتبي، ويشير إلى الشاب الواقف بالجلوس في المقعد المجاور:

- نعم.. منصور السخيلي يشاركك النقمة على عبد الناصر، وإن اختلفت الأسباب..

قلت مستوضحا:

- أنا أعلم أسبابي.. فما أسباب الآخرين؟..

قال عماد:

- منصور ضحية مباشرة للنكسة.. حاكمه عبد الناصر، وطرده، لأنه – كما قالت المحكمة – تخاذل عن أداء واجبه..

قلت:

تهمة قاسية!..

قال منصور السخيلي:

- عدت من سيناء في أقسى ظروف.. لأفاجأ بجلسات التحقيق، ثم الإحالة إلى الاستيداع.. كأني المسئول عن الهزيمة!..

أردف بهزة من ظهر يده:

- الحمد لله أنهم اكتفوا بفصلي.. فقد سجن كثيرون!..

وتنهد:

- أعلنت رأيي.. فعوقبت بالطرد إلى الشارع..

امتد إصبعا عماد إلى الشعرة الوهمية:

- ليس بالتحديد..

- قال السخيلي:

- كنت سأظل أرتدي الكاكي لو أني أغلقت فمي..

قال عماد:

- ما أعنيه أن الطرد لم يكن إلى الشارع، وإنما إلى حيث الربح والبعد عن خط الموت!..

قال السخيلي:

- كل مليم أنفقته في هذه الشركة من حر مالي..

قال عماد:

- ومن أنكر؟!.. لكن الاتجاه إلى التجارة كان خطوة تالية لإحالتك إلى الاستيداع..

بدا واثقا من نفسه ومتحدثا، فأعجبني. قررت أن أجاوز التفصيلات الصغيرة، والجدوى الاقتصادية والمصاريف غير المنظورة، وأتعاقد معه. دعوته – في مساء اليوم نفسه – إلى العشاء بسيسل. زاد من إعجابي – وحرصي على توثيق صداقتنا – أنه ألقى التحية على رجال التقينا بهم، ولا أعرفهم وصافح آخرين في مودة ظاهرة، وتبادل الأحاديث العابرة في قضايا عامة وخاصة، مع جلساء المائدة المجاورة. تصورت أني ربما أفيد من اتساع علاقاته. أهملت ملاحظاته عن النسبة التي يريدها، وتطلعه إلى المقاسمة. وعندما صدرت قرارات التيسير النقدي، تسمح للمصريين العاملين في

الخارج بالتنازل عن حسابات العملات الحرة في البنوك المحلية.. قلت له:

– هذه بداية الاستيراد بدون تحويل عملة.. وعلينا أن نستثمر علاقاتك.

تعددت لقاءاتي بمنصور السخيلي. جالسته، سألته، استمعت إلى إجاباته، ناقشته في أفكاره وآرائه حاولت التعرف إلى الملامح الهادئة التي تخفي توتره المكتوم. وعرفني بأسرته: زوجة وولد في حوالي الحادية عشرة. ذكرني بصباي، وإن بدت العلاقة بين الزوجين أطيب من تلك التي كانت بين أبوي، لا صوت عال وشتائم ومعايرة. يتضح في كلماتها فهم للأحوال السياسية، ولطبيعة نشاط السخيلي، تناقش – في نبرة هامسة، متأنية – ما صنعه، والهلاميات، في رحم البداية، تبدي الرأي حتى في المنديل الذي أطل من الجيب العلوي أكثر مما ينبغي..

روى عن تقلبه بين أسلحة القوات المسلحة: ملازم أول بسلاح المدرعات عند قيام الثورة، يوزباشي في سلاح الحدود، عودته – بعد عامين – إلى سلاح المدرعات، نجاحه في الإفلات – بهويته العسكرية – وسط التيارات: عبد

الناصر وعبد الحكيم وشمس بدران والتنظيم الطليعي والإخوان المسلمين وحرب اليمن والشرطة العسكرية وتقارير المخابرات والجماعات الساخطة. لم يدخل المعتقل أو السجن، حتى أثناء التحقيق معه في بواعث النكسة..

قال لي – ذات مساء – وهو يمد ساقيه في استرخاء، على الكرسي المقابل لمكتبي:

– لعلي نسيت الحياة العسكرية تماما..

– وهل طرأ تغير على حياتك؟..

– بالطبع، وإن تغير أسلوب تعاملي مع الناس. لم تعد هناك أوامر وضبط وربط، وإنما مجاملات وعبارات تحرص على الصداقة والود..

كأنما جلسة المقهى انتقلت إلى الصالة الواسعة، في نهاية الطريق إلى معسكرات مصطفى كامل. استند عماد عبد الحميد وعبد الباقي خليل إلى الجدار الخلفي، في حين اقترب الحاج بخيت البشري وحسونة النقراشي، ليتابعا المزاد عن قرب. لأني سبقت الجميع في الوصول إلى المكان، فقد حصلت على كرسي. سبقني آخرون، فجاء الكرسي في آخر الصفوف. الجالسان في أقصى اليمين اكتفيا بالمتابعة. زاد

عماد من إغماض عينيه، فبدا كالنائم، وشارك عبد الباقي خليل في حوار مع واحد لا أعرفه، بسط أوراقا، يشير على مواصفات كل سيارة بالسعر الذي رسا عليه المزاد، يساعدني النقراشي فيرفع السعر. أضيف مائة جنيه، أو مائتين، ليستقر المزاد في يدي، ينصح بتفويت الصفقة الخاسرة، فلا أزيد. يحيرني فهمه لأصول المزايدة، متى يعلو بالسعر، ومتى ينسحب، وكيف يدفع غيره إلى التوقف. مع ذلك، فإنه يكتفي بالمقاولات من الباطن، لا يجاوزها إلى أنشطة أخرى. أستثيره للمشاركة، فيهز كتفيه: إني أكتفي بدور مستشارك المجاني!. حدد الحاج بخيت البشري سيارة فورد، فاستطاع النقراشي – بمشاركتي – أن يحصل له عليها. ظل يتابع المزاد بعيني الذي لم يسبق له رؤيته. عرفته – منذ البداية – تاجرا للأقمشة والملابس الجاهزة. أذن لي بأخذ موقعي – زمان – قبالة دكانه، ربما لأن الجوارب والملابس الداخلية تكملة لا بأس بها لما يبيعه..

الثوب الغلالة يقاسم الخيال فيما يتصور. يضيف ويحذف، يجسد الصورة بالملامح المرتجاة. أنسى المكان

والمحاذير. أنسى حتى النظرات التي قد تفطن إلـــى الســـر فتذيعه. أمتطي التصور إلى جزيرتي المنعزلة..

عندما ضغطت المرأة في الصف الذي يسبقني، بجانب الفردة اليسرى، فإني نسيت – في اللحظة التالية – حتى الأرقام التي كان قد وصل إليها المزاد، ونوعية السيارة، وهؤلاء الذين جلسوا ووقفوا أمامي وخلفي وحولي. شد الوهج انتباهي، فأعماني إلا عن النظر إليه، ومتابعة التفصيلات العفوية التي قد ترافق حركة الجسد، كعب وردي اللون، وأصابع مستوية، وأظافر مقصوصة مطلية بالمانيكير..

توهم النقراشي أن السيارة المعروضة لا تهمني، فسكت عن المزايدة. أهملت انعكاسات البوح في الأعين المحيطة. لم أخضع تصرفاتي للصرامة القاسية، منذ فطنت إلى المارد في أعماقي، النظرة المخالفة التي تعاني الوحدة، والرغبة في البوح..

أسندت قدمها الحافية إلى الطرف العلوي لمؤخرة الفردة اليسرى، فنزعتها. اقتحمت الجنون بلا تردد. التصقت عيناي بالحركات المرافقة لحركة الجسد، تدس الأصابع في الحذاء،

كأنما توشك أن تنهي المشهد كله، يلتف جانب القدم اليمنى باليسرى، بين التألق في الظهر والبطن والكعب والأصابع. أمل العمر، أتوق لأن يسحقني، يغمض عيني، ويغطي أنفي وفمي، ويقسو على وجهي..

دست قدميها في الحذاء، بينما أيقظني صوت النقراشي عابثا:

- المزاد انتهى.. فهل نبدأ من جديد؟..

لحقنا عماد وعبد الباقي في الطريق إلى الباب الخارجي..

قال البشري:

- المزاد نار!..

قال النقراشي:

- لاحظ أن السيارات بلا رسوم..

قال البشرى:

- اشتريت سيارة واحدة.. ربما تباع في الصالات بضعف ثمنها!..

قال النقراشي:

- بعها لي لو أردت!..

قلت:

- لماذا لا أشتريها أنا؟..

بحلق عماد:

- ثماني سيارات كفاية!..

قلت:

- لن أركبها.. قبل أسبوع أكون قد صرفتها..

قال عماد:

- وسيلة ذكية للتهرب من الضرائب..

قلت:

- بل إنها الوسيلة الوحيدة للفرار من موجات المصادرة والتأميم!.

ارتفع حاجباه، فأبانت العينان عن لونهما العسلي:

- هل تدفع الضرائب؟..

هتف النقراشي:

- كأنك مأمور المصلحة!..

قلت:

- إني أدفع الضرائب. والرسوم أيضًا..

قال عبد الباقي:

- شاكر غلبان.. أولى أن تحاسب الحكومة!..

عبد الباقي خليل!. لم يعد هو هو. في أقل من عامين، كان قد أضاف إلى كثافة ذقنه، وإلى الأوقات التي يرتدي فيها الجلباب الأبيض، وضمن كلماته الكثير من آيات القرآن، وأحاديث الرسول، وأقوال الصحابة، والمثل الأعلى. مال إلى الهدوء في أحاديثه وتصرفاته، وإن ضايقتني منه أسئلة مفاجئة من مثل: ألا تصلي؟.. هل أديت الزكاة؟.. لماذا لا تؤدي فريضة الحج؟.. الكلمات لا تصدر عن تسلط، أو ما يشبهه. يسأل في هدوء، وابتسامة - لم تكن في الأيام الخوالي - لا تفارق شفتيه. كان الضيق يغلبني، وربما تكلمت الجرأة الكامنة بما يثيره. يلفني الحزن، وأتمنى لو أني لم أقل ما قلت..

وصحوت - ذات صباح - على أني وقفت في الرصيف المقابل لبورصة النيل، وصوبت مسدسي على الجالسين. اخترت من بينهم أصدقاء جلسة المساء، وأطلقت الرصاص. سقطوا، فلم يبق منهم أحد. حتى النقراشي - الذي

كان غائبا، منذ شهر، في بلدته – كان جالسا، وصرعته رصاصاتي.. أفصح السر عن قيمة إعلانه، لما تأخرت عن موعد المكتب: قلقت عليك!. لو أني رويت للسخيلي ما حدث.. لو أني رويت له؟!.. القدمان الحافيتان المستندتان إلى جدار شرفة، في الطابق الأول بعمارة على ناصية شارع الميدان. غابت الساقان، وبقية الجسد، داخل الشرفة. لم يعد إلا تألق الوهج. من توالي النظر إلى أسفل، والتعرف، والتحديق، عرفت أنه لفتاة.

تباطأت خطواتي . اتجهت إلى الرصيف المقابل. انبثقت الجرأة المسيطرة بكل اندفاعاتها. أهملت حتى النظرات العابرة. قاسم الخيال ما أرى، وعلت الهمسات في الأعماق. كأنها الصخب..

الفتاة حافية، تنظف زجاج النافذة المقابلة لحمام بيتنا. صرخات أبي وأمي وراء الباب المغلق في بئر مكتومة. تشاغلت حتى عن الكلمات القاسية التي تبادلاها. تحدد عالم اللحظة، لا قبله ولا بعده، بالقدمين العاريتين، تشاركان الجسد حركته.. رويت لنادية حمدي، بعد أن أخليت للمارد سبيله – كل ما همني – يغيب الإشفاق، أو السخرية، في

هزة رأسها، فأروي وأروي، حتى العوالم الهلامية التي كنت أتوق لاقتحامها. أناقش ما ألتقطه من تفصيلاتها: لو أنـــي غجرية نيويورك التي تقرأ الخطوة التالية بين ثنايا بـــاطن التألق، الجالس في حدائق أمستردام يدلك أقدام النساء، بعد تعب المشي، فتاة البديكير التي يطمئن البريق في يديها..

قال السخيلي:

– أحدثك ولا أنت هنا؟..

قلت:

– أنا أنصت إليك..

– وافق عبد الناصر على مبادرة روجرز..

قلت دون تدبر لمعنى السؤال:

– ثم ماذا؟..

– نحتاج إلى توقف القتال لنبني حائط الصواريخ..

– غبي من يتصور نفسه أذكى من الآخرين.. هل يضحك على اليهود؟!..

– هذا هو الحل الوحيد!..

كنت أتعرف إلى الاستعدادات في المناقصات التي حصلت عليها لإقامة تحصينات وقاية الأفراد والأسلحة والمعدات والذخائر، وحفر الخنادق، ومرابض نيران المدفعية، وإقامة وتعلية السواتر على الضفة الغربية للقناة، وتجهيز مراكز القيادة، وإنشاء الطرق، وملاجئ الطائرات..

ألفت أسماء : الإسماعيلية وأبو سلطان وسيرابيوم وعين غصين وأبو عطوة وبورسعيد والسويس وجبل عتاقة وسام ٣ و ٦ و ٧ والسوخوي والميج والفانتوم والسكاي هوك. تمطى الخوف من اقتحام زجاج النوافذ باختراق حاجز الصوت، والاستيلاء على أجهزة الرادار في ساحل البحر الأحمر، وترديد الأغنيات العربية والشتائم في مكبرات الصوت على الضفة الشرقية، واستحمام الإسرائيليين في مياه القناة..

وقلت لعماد عبد الحميد، ليلة الهجوم على شدوان:

– ماذا تعني هذه الحرب؟..

ابتسم، فزادت التجاعيد التي جرها الهزال، حول عينيه:

– معناها المحدد هو استنزاف إسرائيل، حتى لا تهضم سيناء..

علت الدهشة بالسؤال:

- من يستنزف من: الذي يهاجم بالطائرات، أم الذي يدافع من الأرض؟..

قال كأنه يحسم أمرا:

- هذه أول حرب ينتصر فيها العرب على إسرائيل..

بدا لي أن هويدا لمحتني وأنا أحدق في قدميها العاريتين..

بأوامري، تخطوان على "الموكيت" بين مكتبي وماكينة النسخ. خيالاتي تكتفي - لخوفي من الصدمة، أو فقدان الاحترام - بملامسة المستحيل، والتشاغل عن الهذيان، والصراخ، والنيران التي تصاعدت فكادت تحرق رأسي..

كنت قد أضفت إلى مكتب الإسكندرية مكتبا آخر في القاهرة. حجرة في مكتب من ثلاث حجرات بشارع عبد الخالق ثروت، أذن لي صاحبه أن أضع لافتة باسمي تحت لافتته. حددت الاثنين والثلاثاء موعدا للعمل فيه. بقية الأيام تصرف سكرتيرتي الجديدة - هويدا - أمور المكتب..

قالت وهي تسحب الورقة الأخيرة من أمامي:

- هذه آخر مذكرة..

علا صوت جرأتي المحيرة:

- لن تنصرفي الآن!..

ارتفع حاجباها:

- الساعة جاوزت التاسعة..

دفعت إليها بمجموعة من الأوراق كيفما اتفق:

- انسخي هذه الأوراق.. ثم انصرفي..

غالبت رفضها. التمع في عينيها بريق غاضب، ثم عادت الخطوات بين المكتب وماكينة النسخ. لم يشغلني اكتشافها في اللحظة التالية لاتجاه نظراتي. بدت المغالبة هي الجنون بعينه. نظرت وتأملت. أثارتني البشرة الناعمة لباطن السحر، والكعب المستدير، في تأكدها من انسياب الورقة داخل الماكينة المرتفعة عن مستوى قامتها، كأني في حلم، أو عناق للمستحيل..

أيقظني صوت هويدا:

- التليفزيون غير برامجه..

- ماذا؟!..

- تلاوة القرآن في التاسعة..

غاضت الينابيع في لحظة. احتل السؤال المفاجئ كل الغرفة: ماذا حدث؟.. ظهر السادات بوجه حزين. عبد الناصر مات!.. متى؟ وكيف؟ وهل مات ميتة ربه، أم أنه مات مقتولا؟ وهل يعرف عبد الناصر الموت مثلنا؟ هل يجوز الموت على الرجل؟.. التأميمات والمصادرات والاعتقالات. أيها الإخوة المواطنون. فليضع الاستعمار عصاه على كتفه ويرحل. قرار من رئيس الجمهورية. لست خرعا كرئيسكم.. لم أفكر أنه يمكن أن يموت، يتألم ويعاني ويسلم الروح، ربما لأنه كان يبدو لي أقوى من كل شيء. حتى الموت نفسه..

قلت للسخيلي:

– هل مات الرجل فعلا؟..

– حتى الموت تشك فيه؟!..

– أتصور كل الناس يموتون، ما عداه..

– ولكنه مات بالفعل..

– مصيبة!..

– أنت الذي تقول هذا؟!..

- حتى الوجه القبيح ، تألف – بمرور الأيام – رؤيته..

- ها قد مضى الوجه القبيح..

- لا أصدق أن عبد الناصر مات!..

- تغيظني.. عبد الناصر مات من زمان.. يوم الانفصال.. ويوم النكسة.. ويوم الاستيلاء على رادار البحر الأحمر..

أضاف في نبرة حاسمة:

- إنجاز حياته الأعظم هو ترك سيناء للاحتلال الإسرائيلي.

لفني الحزن تماما. سيطر على مشاعري وتصرفاتي نسيت أني تمنيت سقوطه. ها هو ذا يختفي من الحياة كلها.. فلماذا الشعور بالأسى؟.. هل لأني ألفت وجوده، أم أنها المشاعر الغامضة في داخلي، لا أدري طبيعتها ولا بواعثها..

انسقت مع الجموع الحاشدة. عبد الناصر يا عقد الفل.. من بعدك حانشوف الذل. الدموع ولطمات الخدود والبكاء والصرخات والهتافات والشعارات والتصرفات الهادئة

والهستيرية والحزن والخوف والقلق واليأس والتحدي، كأنها تريد منع الموت..

كانت الفاجعة تطغى على كل شيء، تسيطر على تصرفات الناس، توجه أقدامهم، فهي تتجه إلى غير هدف. حتى الهواء التف برطوبة ثقيلة، مقبضة..

عدت إلى الإسكندرية مساء اليوم نفسه..

اتجهت من المحطة إلى شقة العطارين، تناهى رنين التليفون من الباب المغلق. صوت عبد الباقي خليل: أنشأ عبد الناصر الأجهزة لحماية حكمه، ثم ذهب.. وبقيت الأجهزة!. طالعني البوستر الذي كنت ألصقته بطول حائط غرفة النوم، فتاة بثياب الشاطئ، تقف على أطراف قدميها الحافيتين. جلست في طرف السرير، في مواجهة الصورة، التألق، تماما. لم أعن بتغيير ثيابي. فككت أزرار البنطلون، ودارت يدي بالهمسات الصاخبة، والمكان يجاوز الصورة المحددة، إلى صور أخرى وأخرى، تسابقها وتلاحقها وتختلط بها، مشاهد اليوم الكئيب..

تملكني ما لا قبل لي على مغالبته. جلست على سور حجري متآكل، يطل على ترعة المحمودية. أتظاهر بمتابعة

المراكب الشراعية، وحركة المصانع في الجانب الآخر. لم يكن ثمة ناس قريبين، وبدا التألق أمنية مستحيلة. خلعت الحذاء، واستغنيت بالتحديق والتصور، وتسللت أصابعي في جيب البنطلون، تجري بالنشوة إلى منتهاها..

لم يخف عماد عبد الحميد دهشته. المشغوليات إلى مداها، لكن البركان يثور بلا مناسبة، بالتداعي، والعبارة الموحية، والمعنى الذي يتألق فجأة. يفر الخيال إلى جزيرته المنعزلة، ينصت إلى الأصوات الزاعقة والهامسة، يتلمس الأوراق والحصى والأشواك، يبحث عما يريده، أو يخلو إليه، فلا يفارقه حتى يهدأ..

هتف، لتأملي عناوين الكتب المصفوفة في مكتبة دار المعارف بالمنشية:

- هل عرفت الطريق إلى القراءة؟..

كان في الطرقة - بجواري - شاب وفتاة، يتأملان - مثلي - عناوين الكتب. أثارهما السؤال، فجالا بنظراتهما بيني وبينه، نظرات حيادية، كساها فضول، فكتمت الرد..

قال:

- كتاب "كيف تصبح مليونيرا" تجده في مكتبة عم توفيق..

أهملت الملاحظة، وتشاغلت بما كنت فيه. هل يمشون على النار فعلا؟. همني السؤال منذ شاهدت البرنامج - مصادفة - في التليفزيون. لا أذكر من كنت أحادثه، وإن كانت غرفتي وقتها مشغولة بكثيرين. تظاهرت بالمتابعة، وانصرفت إلى البرنامج، أتأمل جذوات النار، والأقدام الحافية التي تمشي من فوقها..

لم أعرف الرياضة المثيرة، أو أسمع بها، من قبل: رجال ونساء يشعلون النار، يخلعون الأحذية، يسيرون ببطء، على الجمر أو الفحم المشتعل. لا يشغلني المعنى. الإرادة ورفض الألم. الألم - في داخلي - مبعثه النشوة. المواصفات، وإن لم ألتق بها، في موضعها من الخيال لا تفارقه. تتداعى - لا أدري لم - بالأسياخ، والمشي على الزجاج، وابتلاع النار، في مواكب الطرق الصوفية، من أبي الدرداء إلى ميدان المحطة أو الباب الحديد.. بدا عماد مناقضا لمألوف طبعه، وإن لم يبحث إصبعاه عن الشعرة

الوهمية. خلا المكان بانصراف الشابين، فناوشت الجرأة في أعماقي:

- لم تعد تكتفي بخناقاتك مع عبد الباقي خليل.. تحاول توسيع الدائرة!..

ألفت سماع مناقشاتهما حول اللحية والحجاب ومنع الاختلاط ورفع أصوات المؤذنين في ميكروفونات المساجد. إذا امتدت الأحاديث إلى مشكلات أخرى، فبمقدار اقترابها من الدين، اتفاقها، أو اختلافها معه. ربما شارك النقراشي بما تمليه عليه خواطره. يعزف عن إطالة النقاش. يصمت إذا أحسن أن التوتر شاب الكلمات، أو أن النقاش تصاعد بلا نتيجة محددة. اكتفى بالإنصات، أو التشاغل بما يخرجني من الدائرة، تظل الجرأة في مكمنها، فلا أشارك برأي..

زايلت البسمة شفتيه:

- اعلم أيها النائم أن مصر بدأت أمس عهدا من الديكتاتورية، يعلم الله وحده متى تنتهي..

دهمني خوف:

- هل تمت مصادرات أو تأميمات جديدة..

هز رأسه في أسف:

- ما يشغلك هو نفسك وتجارتك.. لا تخف.. فقد عزل السادات كبار أعوانه..

ولون نبرة صوته:

- ربما الرياح الآن على ما تشتهي.. افتعلت ضحكة:

- تغدى بهم قبل أن يتعشوا به..

قال عماد:

- لا أحد من هؤلاء مطلوب في الحقيقة.. المطلوب هو عبد الناصر..

- ماذا تعني؟..

- كل ما حدث وراءه دوافع شخصية..

- ألم تقتنع حتى بانحنائه لتمثال عبد الناصر؟..

- أنا لم أقتنع منذ انحنائه للتمثال!..

تمازجت في داخلي الفرحة وخيبة الأمل. كنت على يقين - لا أدري مصدره - أن عماد عبد الحميد يشغل منصبا صغيرا في جريدته، ولكنه صعد في درجات الاتحاد الاشتراكي إلى أعلى، ربما إلى عضوية التنظيم الطليعي الذي دارت الأحاديث حوله وعنه كثيرًا. ها هو ذا أمامي،

يناقش، ويبدي الرأي، ويتفق، ويعارض. محرر صغير، كادر صغير في التنظيم السياسي كذلك..

خمنت ما حدث في اليوم الثالث لانقطاع عماد عن زيارتي. منعه والده من النزول إلى الطابق الثالث، فغابت مائدة الغداء. عانيت – ثانية – هم الوجبة التالية. قلبت في مكتبة أبي. لم يعد في أرففها ما يصلح للبيع، أو أني أشفقت من بيع الكتب التي أحبها. سعيت – ظهر اليوم الخامس – إلى سوق الكانتو أغالب تعثر خطواتي، ونظرات الباعة تتفحص الحقيبة التي حشوتها بملابس أبي وأمي..

لمح عماد – ربما – ابتسامتي المتعجبة:

– هل تكلم نفسك؟..

فرض الإشفاق نفسه، فقلت:

– تذكرت شيئًا!..

أعلن السادات عودة الصحفيين وأساتذة الجامعات المنقولين إلى هيئة الاستعلامات. كان عماد قبالتي، نتابع خطاب الرجل في التليفزيون. ألفت وجوده في مكتب القاهرة، يستخدم التليفون، يلتقي بالأصدقاء، يتمدد على كنبة الصالون عقب انصراف الموظفين فترة الظهيرة. رفض الذهاب إلى

عمله الجديد بهيئة الاستعلامات: أفضل البطالة على العمل بعيدا عن مهنتي. آخر قوانين عبد الناصر: عدم جواز نقل الصحفي من جريدته!. تدبرت عاقبة استمرار صداقتي له. أشرت – كأني أنصحه – بأن يقيم في القاهرة، لا يغادر – مثل زملائه – حديقة نقابة الصحفيين حتى يعود إلى عمله. دارى هدوءه خوفي من الاحتمالات، وغلبت الذكريات القديمة، فأحسست أني لم أضق به..

حاولت أن أفيد من فهمه في قراءة بعض التقارير الاقتصادية. فاجأ – أحيانا – نظراتي المشفقة. لفني شعور عميق، كأنه الإحباط أو الهزيمة أو فقدان القدرة على فعل شيء. ذوت مناقشاتنا: هل انتقد استعداداتنا للحرب المقبلة، أو أنه أضاف توقيعه في العريضة المقدمة للسادات؟..

وقال – يوما – كأنه يحادث نفسه:

– مطلوب أن أرى الخط الوطني أولا.. لأفهم تهمة الانحراف عنه!..

قلت، كأني أستفز الهدوء الذي عاد إلى ملامحه:

– أصابك مرض الصحفيين.. إذا علقت بثيابهم ذرات التراب، طالبوا بنقل المقطم!..

أضفت متسائلا:

- ألم تسأم لعبة الاسترخاء العسكري؟!..

وشى صوته بسخرية:

- كأننا نعد للحرب فعلا!؟..

قلت في ثقة:

- معظم عملياتي في المجهود الحربي..

أغمض عينيه النائمتين تماما، وهز رأسه. انطلقت رغبتي – بلا قيد – في استفزازه:

- فلترجئ الحرب، كي لا ننتصر ببيانات أحمد سعيد!..

- لماذا اختار الإغريق الصندل للمرأة، بدلا من الحذاء؟..

للكلمات وقعها المختلف الذي يوقظ انتباهي، مهما تمطى استغراقه: الحذاء.. الرقص.. الجمباز.. الأصابع.. التجميل.. البديكير.. حمام السباحة.. أنتبه للكلمة في موضعها من القراءة.. أرفع رأسي لسماعها، أحقد، أتأمل، أمتطي الخيال إلى عالمي الذي لا يدرك سره أحد..

شدني المقال. أضأت النور الأحمر، وتفرغت لقراءته. أقدام النساء – أيامها – هي الحافز للرغبة، العطور بين الأصابع، والخواتم أيضا. هي الكنز الغالي الذي يكتفي الرجل باحتضانه، يستكين التألق في الأيدي..

علا الهمس في داخلي كالصراخ. اقتحمت الغابة بلا تردد، أجري وأطمئن إلى الزئير. ومضت المتعة حافية فوق الحصى والأشواك والأغصان، والمشاهد يرسمها الخيال فتبدو كحقيقة. حياة الرومان التي شاهدتها في أفلام الدواردو وكونكورديا وبلازا والهمبرا، تعود كأنها أمامي. أحذف من المشهد ما لا يهمني ، أضيف إليه وأفلح في إيقاف الصورة، فلا تتحرك. تجري يدي بالنشوة العارمة، القاسية (فطنت – فيما بعد – إلى أن الباب لم يكن مغلقا من الداخل) بدا لي رنين التليفون، كأنه رنين المنبه يوقظني. أهملته للحظات، فلم يسكت. عدلت من نفسي بيد، وامتدت اليد الأخرى إلى سماعة التليفون:

– الراديو يتحدث عن عبور القوات المصرية إلى الضفة الأخرى للقناة!.

لم أصدق في البداية ما سمعت. زادت شكوكي بالنبرة الهادئة للبيانات العسكرية. أدرت – للمرة الأولى منذ سنوات – مؤشر الراديو إلى محطات أخرى. كل ما تذيعه القاهرة صحيح. العلم المصري في الضفة الشرقية للقناة. تذكرت مشاعري أيام يونيو الحزينة، وإن تباين الباعث بصورة مؤكدة: الفرح للنصر، والحزن للهزيمة، تنبهت لانغماسي في السؤال والمتابعة والتعليق على تطورات الأحداث.

حجم أعمالي الذي كان قد توزع وتضخم، لم يحل دون انشغالي بما يشبه التفرغ لتطورات الأحداث في القناة. تصرف موظفو الشركات في المهام العاجلة. حتى التوقيعات – ما عدا المهمة – تركت لهم أمورها. خلوت إلى السؤال والنقاش واستيضاح الوضع بكامله. تعددت زيارات عماد عبد الحميد، فلم تعد السكرتيرة تعتذر بانشغالي، أهملت تلميحاتي باعتذارات سابقة، وإرجاء مواعيد لأيام قادمة. دعوته إلى مجالستي في البيت أمام التليفزيون، وقرب الراديو، نتابع توالي الأحداث. أتاح لي الاقتراب منه، جوانب لم أكن أعرفها من قبل، أو أني لم أفطن إليها..

كان طفل الأعماق ، يهلل للأنباء السارة، يبدي انزعاجه للأنباء المتناقضة، التالية. تتباين تعليقاته عن المانع المائي وخط بارليف وأنابيب النار والثغرة والجيش الثالث واقتحام السويس. لا يكف إصبعاه عن نتف الشعرة الوهمية في أذنه. يتكلم ويتكلم، فأنبهه إلى الزبد الأبيض على جانبي فمه..

– أرأيت؟.. هذا هو يوليو الذي تصورتهم أنه مات..

قال عبد الباقي خليل:

– يوليو مات في النكسة.. نحن الآن في الانتصار..

أعلن عبد الباقي فرحته، ألقت الطائرات الإسرائيلية قنابل هائلة الحجم، فلم تقتل أحدا. لم تنفق جثث الشهداء، رغم مرور الأيام، في حين أسرع التحلل إلى أجسام جنود إسرائيل. دخلت دول البترول، المسلمة، المعركة دون تأخير. تفجر نبع ماء في السويس بالقرب من سيدي الغريب. تفجر نبع آخر بالقرب من عيون موسى. ماذا كان يفعل – لولا ذلك – محاصرو السويس وقوات الجيش الثالث؟!..

الانفتاح..

مع أن الكلمة بدت مغايرة لما سمعته في حياتي التجارية من قبل، فإنها كانت تعني فتح الأبواب للقطاع الخاص..

تعرفت إلى كلمات وتعبيرات، ربما لم تكن جديدة، وإن جرى تداولها على نطاق واسع: الاستثمار، التنمية، إزالة التعقيدات الإدارية، توفير الضمانات، المنافسة، حرية الحركة، التمويل الخارجي.. أصبح الاستيراد مباحا. أستورد ما أشاء في أي وقت، من أي مصدر . تلاشت ظلال التأميم والمصادرة والقيود. حتى السلع التي كان استيرادها مقصورا على القطاع العام، أصبح من حق القطاع الخاص أن يستوردها دون عقبات..

غابت الأسئلة: ما المستورد؟ ما حصة النقد الأجنبي؟ من المصدر الخارجي؟. قانون الوكالات الأجنبية يحدد الشروط التي يجب توافرها في التوكيل، أهمها: "ألا يكون الأقارب من الدرجة الأولى لأحد العاملين بالحكومة والهيئات العامة، ومؤسسات وشركات القطاع العام من الفئة العالية فما فوق، ومن في مستواهم". كنت أكثر الناس اطمئنانا إلى هذا النص. مات أبواي، ولا أعرف عن أقاربي شيئًا. حتى خالتي لمحتها – عصر اليوم – وهي تعبر ميدان المنشية. كانت تعاني ثقل الأكياس التي تحملها، والسيارات القادمة في اتجاه شارع فرنسا وطريق النصر. زدت من ضغطي على دواسة

البنزين، فاختزلت نظرتها المتسائلة. أفرخ المكتب الصغير، المطل على شارع فرنسا، العديد من شركات السياحة والتجارة والتصدير والاستيراد وتوكيلات الشركات الأجنبية.

لفني شعور بالضيق، لما قال عماد عبد الحميد:

- انفتاح الروكفور!

قلت :

- من حق الناس أن ينسوا فقر الاشتراكية!..

وفاجأني عبد الباقي خليل بالسؤال، يوما:

- لماذا لا تتزوج؟..

قلت، وأنا أعد نفسي لوابل لعناته:

- أفضل في علاقتي بالمرأة أن أقفز وأجري.. وفي علاقتي بالتجارة، أن تكون مشروعاتي سريعة العائد!..

هل خمن عماد عبد الحميد ما لاحظت؟..

كانت صورة عبد الناصر قد اختفت من موضعها في واجهة بورصة النيل . حلت – بدلا منها – صورة السادات بالزي العسكري..

عدت إلى البورصة بعد غيبة أشهر، طرأ على المكان تغير واضح. تزايدت أعداد الحرفيين والعمال والطلبة الذين أنهوا الدراسة، وطال بقاؤهم في المقهى بلا عمل. لم يعد عبد الباقي خليل يكتفي بمجلسه بيننا. شملت صداقته الذين تناثروا في أرجاء المقهى. ينتقل إليهم، وتمتد المناقشات صاخبة وهامسة، ينصتون إليه في إعجاب لا يخفى، ويصحبونه لأداء صلاتي المغرب والعشاء..

قال عماد:

- ماذا يفعل الحاج إحسان شكر الله؟..

أشار بإصبعه إلى الصورة الواجهة:

- صاحبك..

قاطعته:

- من ؟..

احتضن كوب الشاي الساخن بكفه، وقال:

- السادات طبعا.. يقود بنفسه حملة للقضاء على ذكرى عبد الناصر. رفع اسمه من استاد القاهرة، وبحيرة السد، وحظر نشر صوره أو إذاعة أغانيه أو أي شيء عنه!..

أضاف في أسى واضح:

– حتى القاهرة.. تخلو من شارع واحد باسم عبد الناصر!..

حدثتك نادية حمدي – أمامي – عن جوانب نفسيتي. التعاطف والمشاركة والشفقة والرثاء والحب، مفردات تغيب عن قاموسي اللغوي ومشاعري ومعاملاتي. أصارحك بأني أتعاطف مع هؤلاء الذين يواجهون الخصومة، الذين يقسو عليهم الآخرون، لا يشغلني إن كانوا مصيبين أو مخطئين، تعاطفي لمجرد أنهم في الجانب الأضعف. يداخلني شعور كأنه التحدي. هو الشعور نفسه الذي كان يعلو – بصوتي – في النقاش مع عماد عبد الحميد في دفاعه عن عبد الناصر، وعبد الباقي خليل في التأكيد على الوازع الديني، وتعقيبات النقراشي التي تكتفي بمجرد المشاركة..

وأبدى عماد عبد الحميد دهشته يوما:

– لماذا تقرأ في السياسة مادمت لا تحبها؟!..

تركت إحساسي بالتفوق يبين عن نفسه:

– لم أعد تاجرا صغيرا. والتاجر الناصح هو الذي يبني حساباته على التطورات السياسة!..

سهل أن أناقش آراءهم. أبدي رأيا وأدافع عنه.. لكن السياسة لم تعد شاغلي إلا بقدر اتصالها بعملي. أسمع، وأتابع، فلا أشارك برأي. أحرص على السماع، والمتابعة، دون اهتمام. أفاجأ بمشاركتي في الحوار. تدفعني الجرأة الغريبة المسيطرة. لا أعرف كيف احتوت ترددي. أبدى الرأي، أناقشه في اللحظة التالية: لماذا؟... وهل هو الرأي؟.. الصواب؟.. يتواصل النقاش في داخلي. أتبين الكلمات بعد نطقها..

- كأن عبد الناصر هو المسئول عن خطايا البشر!..

والتفت - بتلقائية - إلى الجالسين في المقهى، بعد أن فطن إلى ارتفاع صوته..

قال عبد الباقي:

- لا أحد ينسى أنه هو صاحب اعتقالات الإخوان في ٦٥.. وهو الذي ضرب القضاء الشرعي، وصفى أوقاف المساجد، وبدل صورة الأزهر..

عبد الباقي يعلن آراءه دون أن يشغله التلفت. ظهر له أصدقاء كثيرون، لم يكونوا في حياته ولا في حياتنا من قبل.

هؤلاء الذين تتزايد أعدادهم في بورصة النيل، لا يعرفنا بهم، أو يعرفهم بنا، وربما التقينا به معهم في الطريق..

قال لنظراتنا المتسائلة:

- زملاء في المعتقلات!..

قال عماد:

- خرجوا لمهمة محددة.. هي الوقوف مع السادات ضد معارضيه!..

اصطنع الدهشة:

- هل للسادات معارضون؟

قلت:

- نحن الآن نحيا مولد الشتائم ضد عبد الناصر..

قال عماد:

- أقطاب المولد مليونيرات بلغوا الخمسمائة!..

أطلق النقراشي ضحكة عابثة:

- زد عليهم واحدا.. اسمه شاكر المغربي!..

كاترين نيقولا..

مع أن والدها – نيقولا كافافيس – كان يمتلك البيت المقابل لبيتنا في شارع عبد المنعم، فإني لم أحاول أن أحادثها، ولا استدعاها خيالي المحموم في انطلاقاته المجنونة. العشرات من ممثلات السينما وفتيات الأغلفة والأقارب والعابرات – مصادفة – في الطريق، يتسللن إلى خيالي، بالوهج الذي سبق أن رأيته. أغمض العينين، أتمثل الصور والكلمات والمواقف، أعيد التأمل والتحديق..

حين اتجهت إلي بالسؤال، لم يكن في الأمر ما يدعو إلى العجب. كنت ضمن عشرات تناثروا حول سراي رأس التين، يتنبئون بالخطوة التالية لقذائف الصباح، انطلقت من أعلى مبنى الحرس الملكي، فردت عليها القوات المحاصرة بطلقات مماثلة، قال أبي في تأكيد: ما حدث ليس مجرد انقلاب عسكري.. تطورات الأمور تؤكد أن الهدف هو عزل الملك. لابد أن تلك كانت توقعات آخرين. حتى الذين يصعب أن ينتبهوا جيدا إلى خطورة ما يحدث. سعوا مثلي – بالفضول – إلى السراي، أحاطت بها قوات من الجيش، يتبادل ضباطها الأحاديث الهامسة، يتطلعون إلى المباني

المقابلة، يطالبون الواقفين ألا يقتربوا – أكثر مما ينبغي – من الكردون المحاصر..

– هل يقدم الملك استقالته فعلا؟..

بدا أن السؤال أكبر من أعوامها التي تبلغ الرابعة عشرة. تأكدت – مع أني لم أكن أزيد عنها بأكثر من عامين – أنها تنقل ما سمعته. قبل أن أرتب كلمات الإجابة، تدخل صوت جانبي:

– إن لم يتنازل، فلا معنى لكل ما حدث..

قالت سيدة متوسطة العمر:

– إذا تنازل دون أن يقتلوه أو يطردوه من البلاد.. فلا بأس!..

قال الرجل في غضب:

– إذن يظل بحريمه بيننا!..

غاب الحوار – في اللحظة التالية – وكرت الصور متلاحقة بلا رابط، وتناهى صوت صديق لأبي – ذات مساء – من الصالة ، يؤكد أن الملك وضع في سيارته

جهازا، يحيل المقعد الخلفي سريرا. ويتولى الجهاز – كذلك – رفع ساقي المرأة..

قاطعت رواية الولد حامد الإسناوي، عن الفتاة التي اختلى بها في غرفة السطح. وسألت في لهفة: هل خلعت حذاءها؟..

تذكرت صورة الراقصة الحافية على غلاف "آخر ساعة" (كان الجميع يتحدثون عن علاقة الملك بها) وتخيلت آلاف الفتيات، يسرن حافيات في ردهات القصر، أو يستلقين على الأسرة، وفي حمامات السباحة..

– بوسعك أن تتحدث العربية.. فأنا من مصر..

أعدت النظر إليها، وقلت متسائلا:

– ألست كاترين؟..

زوت ما بين حاجبيها – لحظات – وهتفت:

– أنت؟!..

قلت لها، وأنا أتطلع من نافذة الفندق إلى أضواء ميناء ليماسول:

– إني أدين لأسرتك بفضل ما أنا عليه الآن..

لم تخف دهشتها:

- معقول؟!..

- مع أني كنت في العشرين.. فقد اشتريت الكثير مما باعت أسرتك، عند هجرتها، ومئات الأسر الأجنبية في ٥٦..

أضفت وأنا أتأمل ملامحها:

- كانت تلك بدايتي كتاجر..

هزت رأسها:

- أذكر.. وإن كنت - بالطبع - لا أذكر من انتهز الفرصة..

قلت ضاحكا:

- أنا واحد منهم..

سألت في جدية:

- ماذا اشتريت؟..

- هذا موضوع قديم.. لكنني أذكر الإطار الذي كانت صورة أمك داخله.. اشتريته - فيما أذكر - بخمسة عشر قرشا..

- والصورة؟..

– لم أحتفظ بشيء.. كنت تاجرا في بداية حياتي.. فلم يشغلني – عندما بعت الإطار – ما كان بداخله..

لاحظت شرود عينيها، فقلت:

– كنت قاسيا؟!..

– واضح أن الهدف – وحده – كان شاغلك..

هل تختلط النوازع والمشاعر، فلا تبين عن فواصل محددة؟.. حدثتك عن الهدف الذي أهملت الوسائل في اتجاهه. كنت أنظر في أسفل، مدفوعا بقوة غريبة مسيطرة، لا قدرة لي على مقاومتها. قررت ملايين المرات، أن أهمل الأمر، وأحيا كالآخرين.. لكن طبول الغابة تصم أذني لمرأى التألق، حتى لو كان صورة صغيرة في مجلة. تلازمت النظرة بالخطوات التي مشيتها في دنيا الأعمال. لم تصرفني المعاملات المادية، أو الصفقات، عن الخلو إلى نفسي – ولو في حضور الآخرين – واحتضان حلمي الغالي. وبقيت على صلتي بالخيالات، لا أفارقها.. وإن ظل السرد داخلي، أتحدث وأناقش وأسأل وأبيع وأشتري وأعقد الصفقات، فلا صلة بين عملي وذلك المارد الذي يعلو صراخه، فأضرب قبضتي – بلا مناسبة – في حافة المكتب. لم تكن تؤلمني، أو تضايقني،

تصرفات الآخرين، مهما تمادت في الإيلام، إن أذنوا لي – ربما دون أن يدروا – باحتضان كنزي الجميل. نتمرغ في رمال الشاطئ، نسبح في بحار عميقة، غامضة، نعانق النجوم في سماوات لا نهائية.. لكن التجارة هي الهدف والوسيلة، يتحول الجنيه إلى جنيهين، والجنيهان إلى عشرة ومائة ألف. كنت حريصا على ذلك، فلا تنازل إلا أن يكون بتأثير القوة الغريبة المسيطرة، التي لا قبل لي على مقاومتها: ما معنى قول المرأة إن الهدف وحده كان شاغلي؟!..

قالت:

– ألم تغادر ليماسول؟..

قلت:

– زرت أفدهيمو وبيسورى..

– نصيحتي أن تزور بافوس.. لا تبعد عن هذين الشاطئين كثيرًا..

أضافت مؤكدة بهزة من رأسها:

– أنها أجمل المدن القبرصية على الإطلاق..

قلت:

- أستطيع - لكثرة المستثمرين والتجار ووسطاء العقارات العرب - أن أمارس هنا نشاطا جيدا..

- حدثتني عن نجاحك التجاري في مصر..

- الحركة بركة.. لعلي أكون أول مصري يفتح فرعا لشركاته في قبرص..

- بالعكس .. سبقك كثيرون..

- إذن .. سأكون أخطرهم..

- ألا يكفيك أن تكون رجل أعمال ناجحا؟!..

- هذا هو تقديري لنفسي .. أقف في المقدمة، أو لا أغادر مكاني..

قالت ضاحكة:

- بوسعك أن تتزوج من هنا أيضا..

أضافت في نبرة محرضة:

- العروس هنا تدفع المهر، وتؤثث البيت، ومن حق زوجها الأجنبي أن يحصل على إقامة دائمة في الجزيرة..

قلت، وأنا أفتعل ضحكة:

- إذن .. كم تدفعين مهرا لأتزوجك؟!..

طالت الأحاديث، وامتدت، وتشابكت. قلت وأنا أدفع التثاؤب بأصابعي:

- سأقضي في قبرص أسبوعا كاملا.. فهل نلتقي غدا؟..

قالت: وهي تقذف بحذائها إلى غير مكان:

- أيها الانتهازي.. قررت أن أقضي الليل معك!..

لاحظت اتجاه نظراتي، وارتباكي. بدا التألق غاية ما أتصوره، وتمنيت أن أغفو أو أصرخ أو أبكي. ركلت وجهي - في مداعبة - بباطن قدمها، فتهيأت لعناق الموت نفسه. غسلت بالدموع قدمي أمي، وتزاوجت اللذة بالألم في عصا المدرس، وداعبت الغسالة بطني، وتأملت قدمي في الكورنيش والمحمودية ورأس التين، وتمنيت أن يتوقف الزمن..

لم تعد كاترين نيقولا جارة البيت القديم في العطارين، أو تلك التي كنت أحادثها عن ظروف حياتها في قبرص، والمهمة الخاصة التي جئت لأجلها، فيصعب أن أتحدث فيها. شاغلي البريق. يلامس - بعفوية - فمي أو عيني أو يدي، يصبح الألم هوامش في كتاب متألق السطور..

طفنا بالشوارع والأسواق. جلسنا في "ويمبي" بشارع مكاريوس. أكلنا الأطباق العربية في مطعم "يا حياتي": الكبة النية، والفوارغ، والمقادم، والمحشي، والشيشبرك. والفول، والحمص..

أفلحت في التعاقد على صفقات بأسعار تقل كثيرًا عن الأسعار المعلنة. حتى لو اتصلت الجمارك بالتلكس، فإن الإجابة تؤكد أسعار الفواتير.. فكرت – قبل أن أغلق حقائبي – في البوح لمرة ثالثة. كان أمامي ساعات على العودة، فلن يصدمني رفض سوزان النجار، ولا عجزي عن إطلاق المارد من القمقم.. لكن الخواطر تماوجت. عادت إلى البحر، ولثمت الشاطئ، واصطدمت بالصخور: لن أغفر لك اتجاه نظراتك. لم يعد البوح ممكنا. حتى الملاحظة التي قد يغيبها السفر، ربما تظل في الذهن لا تغادره. يضايقني التعالي والكبرياء والسخرية والملاحظات المعيبة. تحاصر القيود جرأتي، فلا تبرح مكمنها. يعابثها السؤال: لو أنها – كاترين – أصغت، وتفهمت – بحكم البيئة المغايرة – فما فائدة البوح بعد الفراق؟!..

أهملت الرد على التليفون، وتشاغلت بإعادة ترتيب ثيابي وأوراقي، حتى ظهر موظف العلاقات ، يذكرني بموعد الرحيل عن نيقوسيا..

هل كانت المظاهرات مدبرة من قبل؟.. وهل كانت للاعتراض على رفع الأسعار أم لقلب نظام الحكم؟..

أعددت نفسي للخروج، ففاجأتني الأمواج الزاعقة أسفل النافذة. شملني خوف، وكرهت الجميع. اتصلت بعماد: لماذا المظاهرات الآن؟!.. قرارات رفع الأسعار ألغيت منذ يومين!. شاهدت – من باب البلكونة الموارب – مبنى البورصة القديمة وسط النيران. أيها الرجال، فليبق كل في مكانه. خلقت فيكم العزة، وخلقت فيكم الكرامة. باسم الأمة، قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية. هل تمتد الحرائق فتشمل الإسكندرية كلها؟!..

قال محروس عبد ربه التاجر بالميدان، وهو يغلق سماعة التليفون: لم يعد أمامي سوى أن أصفي تجارتي، وأسافر!. أصفي كل شيء، وأسافر؟!.. قفز الخاطر في بالي للمرة الأولى ولكن: إلى أين؟.. وهل أبدأ من جديد؟ كل هذا

الدمار لأن سعر الرغيف زاد قرشا؟. اركب "تاكسي" حتى لا يحطم المتظاهرون سيارتك. هل يعلم أبوك بهذه الصينية؟.. أعطني مليمين أشتري فولا بزيت من أول الشارع.. شوارع العطارين وصلاح الدين وعبد المنعم والطريق إلى كوم الدكة. سقطت وزارة لأن سعر أقة الأرز زاد ثلاثة ملاليم. الخبز والأرز والفول والطعمية. هل قرأت مصطفى أمين.. جاء المخربون بعود كبريت واحد، فأشعلوا النار. هل هو حريق جديد للقاهرة؟.. هل يحكمنا صندوق؟.. قبضوا على عماد عبد الحميد، وأفرجوا عنه ثالث يوم. لماذا تركز التدمير والنهب في شارع الهرم؟.. ولماذا سكتت الحكومة – هذه المرة – عن الجماعات الدينية؟.. وهل السبب – بالفعل – هو قرارات رفع الأسعار؟.. وماذا عن الإعلان بأن الشيوعيين كانوا وراء التدمير في القاهرة والإسكندرية بأن الشيوعيين كانوا وراء التدمير في القاهرة والإسكندرية والجيزة والمنصورة وقنا وأسوان؟!. قلت: لن أغادر البيت قبل أن تهدأ الحالة. الألم قاتل وإن غاب مصدره. ساقاي متخاذلتان كأني أهم بالسقوط. خناقات أبي وأمي، وأثاث البيت المتكوم، وعم توفيق. خالتي تعبر ميدان المنشية. كبرت يا شاكر،

فحاول أن تعتمد على نفسك. الشعور بالوحدة في إفطار رمضان، وزيارات عماد عبد الحميد بصينية الطعام. لماذا يكرهني أبوك؟.

نظرته، كأنها بصقة. الانتماء للطبقة الأعلى له اعتبارات أخرى. ما يهمني أن آكل الطعمية بمزاجي، وليس بالفقر. قالت سوزان النجار: لن أكون متسامحة في اتجاه نظراتك. أصرخ لضربات المدرس، وإن أرعشتني اللذة. حدائق رأس التين والكورنيش وشاطئ المحمودية. قال عماد: لو أني مكانك لاتجهت إلى التجارة. السر يحاصرني فلا أعلنه. قال عماد: ربما عوقبت على مجرد حياتك بيننا. هل يعني هذا أني أصبحت مقاولا؟. الجزر تذوى وتغيب، فتصارعني – بقسوة – أمواج البحر. هذه مكافأة عملي الأولى بالصحافة، فابدأ بها. تسللت أسفل السرير، أحتمي به من أدوات المطبخ التي أنهت بها أمي مشاجرتها مع أبي. رد على شتائمها بكلمات قاسية، وإن لم يبلغ صوته حد الصراخ الذي بلغه صوتها. فوجئ بما فعلت، فقذف بالجريدة إلى الأرض، وانتطر من كرسيه، وهتف: مجنونة!. شملني الخوف للخوف الذي تقلص به وجهه. قلب البائع في سوق

الكانتو شفته السفلى، وقال: البدلة قديمة. هل تبيعني ساعة يدك؟.. لما تلقيت برقية السجن بوفاة أبي، لم أقدر حتى على تصور أيامي القادمة. حاولت الفرار إلى جزيرة التألق، فابتعدت، وغابت. جاهدت لكتم دموعي، ثم بكيت.

اعتذرت لعماد حين أبدى ملاحظة على لهجتي المتغيرة. أشفقت على نفسي، وعليه. الجدار الذي أطمئن إليه، وإن هده المرض بهزاله اللعين.

لم أكن قد استمعت إلى خطاب السادات في مجلس الشعب. كنت مشغولا في صفقة أسمنت، فلم أعط انتباهي للأحاديث المتلاغطة..

كانت زيارة السادات إلى القدس شاغل الناس. ظهوره على باب الطائرة في التليفزيون. خطابه أمام أعضاء الكنيست. أحاديثه ومؤتمراته وصلاته في الأقصى. نبهني عماد عبد الحميد، فعدت إلى السياسة. حقيقة أم مناورة؟.. فماذا عن شائعات الاستعداد للحرب في العام القادم؟..

كان الناس سعداء، ومطمئنين، ورافضين للعون العربي الذي يعطي بمقدار، أفلحوا في هزيمتنا ثلاث مرات. واجهوا

انتصار الحرب الرابعة بالعبور إلى الضفة الأخرى في القناة. الإصرار على حربهم معناه الإصرار على الموت..

تسلل إلى آراء عماد عبد الحميد حذر، أو ما يشبه الإحساس بمخالفة نقطة الزيت لمياه البحر. بدا وحيدا ومنعزلا، صوتا ضائعا وسط هدير الأصوات المؤيدة، المنتشية، وأهمل العلاج، فزادت تأثيرات المرض في تصرفاته. لم يعد يعبر عن آرائه بالبساطة نفسها التي تحدث بها من قبل.

تبدو المعارضة في ثنايا الكلمات، لا صراحة ولا مواجهة. نشوة السادات بما فعل، أضعاف ما كانت عليه صورته في حرب أكتوبر. يعلن السلام الآن كأنه يهبه. هذه آخر الحروب. الحاجز في إسرائيل نفسي، وهاأنذا أزيله، يتحدث عن حق الفلسطينيين في لهجة الذي يضع الشروط..

قلت لعماد ، أستحثه على كشف ما يعاني اختفاءه:

- كأنك بلا رأي؟!..

امتدت أصابعه إلى الشعرة الوهمية وإن لم يحاول نتفها، وقال في جدية:

- من يعلن الرفض يعرض نفسه للسجن والغرامة والحرمان من الحقوق السياسية.. أيضا من شغل وظائف في الصحافة..

جرى بلسانه على شفتيه، وأضاف:

- كأن القانون فصل على مقاسي؟!..

- إذن فأنت ترفض؟..

غالب تردده، ثم سكت. يفكر دون أن يتكلم، بعكس عبد الباقي خليل الذي كان يتكلم بلا تفكير، ثم يبدأ التفكير فيما قاله:

قلت:

- أعلن بيجين أن كل شيء قابل للتفاوض!..

قال عماد:

- وأعلن كذلك أن إسرائيل لن تنسحب من كل الأراضي العربية..

- أنت؟!..

لم أخف دهشتي حين طالعني بلحيته التي شذبها قليلا وإن ظلت على حالها. تصورت أنه قد ألقي القبض عليه.

تكررت مرات الاعتقال والسجن في حياته، فألفت غيابه أيام الطوارئ..

- ألم تكن تتوقع رؤيتي ؟..

قلت باستهانة:

- بصراحة.. نعم..

أضفت:

- لماذا هذه المرة؟..

- عنواني لم أغيره ، فاسألهم!..

قال السخيلي، وهو يتأمل اللحية التي تغيرت بالتهذيب:

- أنهم يقبضون في الشوارع على الملتحين..

- قدمت عبر شوارع مزدحمة بالمخبرين والعساكر..

قلت:

- كأنك تطلب القبض عليك؟!..

قال عبد الباقي:

- إنهم يعاملون من يتمسكون بدينهم كعصابات للإجرام، لا كاجتهادات ينبغي أن تناقش!..

قلت:

– ما أعلمه أن أعداد المؤمنين زادت في عهد الخليفة محمد بن أنور السادات!..

قال عبد الباقي:

– واجهت الحكومة نشاطهم بالعنف.. فألجأتهم إلى الرد بمثله!..

روى عبد الباقي خليل ما حدث: صعد الشاب إلى المنبر، بعد انتهاء صلاة الجمعة. طالب المصلين بالانتظار كي يلقي كلمة.. لكن غالبية المصلين تأهبوا للانصراف..

قال:

– لم أكن أعرفه ولا التقيت به من قبل، ولكن من الواضح أنه كان لديه ما يقوله..

قاطعه النقراشي:

– فحاولت إعادتهم بالضرب؟!..

– هذه فرية بوليسية.. إنما وقفت في طريقهم، لأعيدهم!..

– قيل إنك أمرت من أغلق باب المسجد.. وبدأت الجنازير تؤدي عملها!..

تصاعد في داخلي كره لم أقو على كتمه. نسيت خصامه لعماد عبد الحميد، وآراءه القديمة، الزاعقة، وحرصي على الود الذي خصني به في السنوات الأخيرة..

- ما المستقبل الذي ينتظرنا لو وصل أمثالك إلى الحكم؟!..

وهو يردف التشديد على الكلمات، بهزة من رأسه:

- نفس ما كان لدولة الإسلام حين امتد مجدها إلى جنوب فرنسا!..

سأل السخيلي:

- لماذا الجماعات الإسلامية تعامل المرأة كأنها الشيطان؟..

قال عبد الباقي:

- إذا التزمت بقواعد دينها، فلا ضرر ولا ضرار..

أضاف:

- لا تنس أنه عن طريق حواء استطاع إبليس أن يصل لآدم..

قال السخيلي:

– يغيظني عقاب الضرب على القدمين!.. تساقطت الكلمات. لا صلة لها بما قبل وما بعد. أخفت الكلمة الضوء، التفصيلات الصغيرة، والظلال، انتزعت السؤال من أعماق بئر:

– كيف؟..

قال السخيلي:

– الابتسامة – كما علمت – تعاقب بعشر ضربات على القدمين. وعدم إطاعة أمير الجماعة تعني خمسين ضربة.. والضرب يتم أمام الأزواج والأشقاء...

هتف عبد الباقي:

– هذه مزاعم المغرضين:

ابتعدت عن الحوار دون تعمد فلم أتابعه. تمشيت في جزر الذاكرة، زملاء الدراسة في العطارين الابتدائية، وأصدقاء شارع رفاعة، خلف بيتنا . عقاب الخاسر في ألعابنا – باقتراحي – ضرب القدمين. أخسر، فيغيظني اكتفاء الأولاد باللعب، لا يشغلهم الفوز أو الهزيمة، ولا إلحاحي في أن ينال الخاسر عقابه..

دفع إلي بجريدة مطوية الصفحات، وقال:

- هذا هو ما يكتبه صديقك الآن.. قلبت الجريدة إلى الصفحة التي يشغل ثلثها بابه الأسبوعي "قلوب حائرة"..

قاطع تصفحي لعناوين الباب:

- ألا يمكن الإفادة من علاقاتك؟..

أسندت يدي إلى الأوراق المتناثرة على مكتبي:

- كيف؟..

- عملت بالصحافة لأني أحب الكتابة السياسية..

- تستعد للزعامة؟!..

وهو يغالب انفعاله:

- بل أعاني المشكلات السخيفة.. زوجوها لشخص وتحب آخر.. يحب فتاة ويخجل من البوح لها بحبه.. يتقدم الشاب الفقير فيدخل العجوز الثري.. يخطئ مع فتاته ويطلب النصيحة.. ما شأني بذلك كله..

عماد عبد الحميد. شقة العطارين، والطعام اليومي، والنصائح والنقود التي تحاول المساعدة. بدا مهموما ومتخاذلا، كأنه بذل جهدا هائلا لمصارحتي بما يعانيه. كأنه خسر الكثير لتغيرالصورة التي توهم أنها استوت في مخيلتي عن وضعه الصحفي. صورته التي رسمها الذهن: واحد من

عشرات، تشغي بهم دور الصحف، لا يشغلهم مستقبلهم الشخصي، لأنهم – بتقدم سني عمرهم – أصبحوا فيه، ولا تشقيهم رئاسة قيادات تصغرهم في السن. لا يملك من أمر نفسه شيئًا، ولا يستطيع أن ينشر كل ما يكتبه، رئيس التحرير، وربما رئيس القسم، من حقه أن يحذف ما لا ينبغي نشره..

– أنا واحد من مئات الصحفيين، اكتفوا بالاسم دون أن يمارسوا عملا..

– ومن يمنعك؟..

– المنع من فوق..

– فصلت من عملك؟!..

– ذلك أرحم!..

أضاف فيما يشبه التهيؤ للبكاء:

– الصحف الآن أبعاديات يمتلكها رؤساء التحرير..

توقفت أصابعه على أذنه كأنه التقط الشعرة الوهمية:

– نحن في عهد رؤساء التحرير الذين يعرفون بمناصبهم..

وقال للتساؤل في عيني:

- هل تصادف بائع الصحف الذي ينادي على جريدة فلان. مثلما كانوا ينادون على أهرام هيكل؟..

تعرفت إلى رؤساء مجالس إدارات مؤسسات صحفية، وإلى رؤساء تحرير وكتاب كبار. المجاملة، وربما المصلحة وحدها ظلت تحدد علاقاتي بهم. أضيف إلى علاقاتي المتشابكة، وأحذف ما قد يسيء إلى الصورة العامة، لا يخطر في بالي عماد، لتوهمي – الذي لم أناقشه – أنه قد اقتنع بأحواله في الجريدة..

قلت:

- هل تعيد في الجريدة ما تعلنه في القهوة؟..

- كيف؟..

- هل تأخذ على النظام سياساته؟..

- تخصصي العواطف لا السياسة..

- ألا تناقش الأوضاع السياسية مع زملائك؟..

لاحظت حركة إصبعيه المفاجئة إلى الشعرة في أذنه.

وتحركت مشاعر قديمة، للهزال الذي امتص جسمه:

- سأبذل كل جهدي لأحقق ما تطلب!..

نادية حمدي..

سمعت عنها الكثير، قبل أن تطلب لقائي. في نهاية عقدها الثالث. اتجهت إلى الاقتصاد رغم تخرجها من كلية الفنون التطبيقية – وهو ما يستدعي الملاحظة – فاستطاعت أن توسع دائرة نشاطها في مدى قصير، وأن تنتزع من الآخرين – كنت واحدا منهم – صفقات ، تصوروا أنها في متناول أيديهم – وهو ما استدعى سخط الكثيرين – لكن الإعجاب فاق ما عداه من مشاعر، وتمنيت أن ألتقي بها..

استعدت الاسم من السكرتيرة، قبل أن ألبي طلبها بلقائي لم يصلني من حياتها ما ينبو عن المألوف. ووجدت في رفض الآخرين لوسائل نجاحها، غيرة يعاني سلبياتها أبناء المهنة الواحدة. التجارة شطارة: ذلك هو درس الصفحة الأولى الذي تعلمته من حسونة النقراشي. لو تأملت مشاعر الآخرين، فلماذا الصفقات والمزايدة والمناقصة والربح والخسارة والمسميات التي تعني انتهاز الفرصة؟!..

بدت أصغر من سنها الحقيقية، مع أنها كانت صغيرة السن فعلا. شدتني عينان تطل منهما وحشية غريبة، فتغير

مألوف التصرف. لم تهبط عيناي على المعنى الذي يشغلني، وإنما اتجهت بالحديث إلى عينيها اللتين احتواني بريقهما تماما، بريق يشي بمعان متباينة، لكنه لابد أن يضعك في إساره..

امتد الحديث في مناقصة حصلتْ عليها، لبناء مساكن شعبية. خذلها تناقص العمال. كل من يتوسم في نفسه قدرة، يستخرج جواز سفر، ويسافر إلى الخارج. السوق خالية إلا من أنصاف المحترفين، أو ذوي الأجور المرتفعة..

استأذنت السكرتيرة في الانصراف ، فخلا المكتب من الموظفين. وعدتها – جادا – بتدبير ما استطعت من عمال، وتهيأت للانصراف..

لكن الحديث كان قد جاوز المشكلة الأصلية. تشعب وتشابك. حدثتني – لا أذكر كيف – عن صديقة لها: هل تطلب الطلاق لمجرد أن الزوج غير معاملته لها؟..

سألت عن ظروف العلاقة. بواعث تغير معاملة الزوج. مظاهر التغير كما تراها الزوجة الصديقة. بتلقائية، ودون أن يكون لكلماتي صلة بما سبق وما لحق، وبأي شيء، قلت وعيناي تتجهان إلى عينيها:

- ربما الزوج لم يجد فيها الشيء الذي يتمناه أحد الزوجين في الآخر..

اكتفت بنظرة متسائلة..

قلت:

- لي صديق تزوج فتاة أقرب إلى القبح. ولكنه يحب في المرأة فمها.. وكان لفتاته الفم الذي يحبه.

قالت في بساطة:

- هذا حقه..

قلت:

- ماذا تعنين؟..

- قد يكون الحب لجزئية في الشخص الذي نحبه.. الطيبة، أو خفة الظل، أو جمال الشعر..

استطردت في بساطة، أذهلتني:

- وربما جمال الفم كما يحب صاحبك!..

نظرت إلى قدميها. أميل إلى الطول، والأظافر طويلة كذلك، وغير مقصوصة، فهي لا تستجيب إلى التألق الذي حددت له إطارا ثابتا.. لكن مجرد الموافقة على ما تصورت

أن العالم كله يرفضه، دفع بي إلى التفكير في انتزاع السدادة من فم القمقم، فيخرج المارد الذي طال احتجابه خمسة وثلاثين عاما، هي كل سنوات عمري..

- إذن .. لو قلت إني أحب في المرأة شيئًا بذاته.. ألا يعد عيبا؟..

قالت في دهشة:

- هل يعيب المرء أن يكون صادقا مع نفسه؟..

مع أن يدي كانت قد أمسكت بسدادة القمقم، تهم بانتزاعها، فقد غلبني التردد لحظات:

- فإذا كان الشيء هو قدم المرأة؟..

السر الذي استقر في موضعه داخل النفس، يغلي ويمور، يحاول الملامسة والتحديق والإفصاح، دون أن يدري بذلك الآخرون، أبان عن نفسه في بساطة غريبة، لم يكن ذلك مما يدور لي ببال. قنعت بالتسلل وافتعال المواقف، فلا تجاوز التصرفات براءتها الظاهرة، وإن توزعت سرحات الخيال في قارات العالم، تنتزع الحمم، وترعى الأساطير، وترقى الجبال، وتخوض البحار، وتحلم بالمستحيل. يفاجئني القول: ساقان تستحقان النظر!.. لماذا لا تتزوج؟.. لا أقوى

حتى عن أن يبين السر في الكلمات والتصرفات، والزواج – في مأزق الكتمان – سرابي النهاية، والخيالات المجنونة دنياي التي أتخفف فيها من المحاصرة، والقيود..

– حتى لو كان طيفها!..

وعلا صوتها في تأكيد:

– بيكاسو كان يحب قدمي المرأة.. عبر عن ذلك في لوحاته..

أضافت في تقريرية هادئة:

– هناك بالطبع عشرات سواه.. فلست وحدك..

ووهبتني – في الليلة نفسها – ما أحبه. السر الذي تيقنت أني لن أصارح به أحدا، تعلمه الآن هذه الجالسة أمامي: خلعت حذاءها، وأهملت التألق في يدي. تناسيت المواصفات التي تحددت في مخيلتي. لم يبد أنها فوجئت للخطوة التالية. أضافت إلى شفتيها ابتسامة مشجعة، حتى شملت الرجفة – أخيرا – كل جسدي..

قالت لي – فيما بعد – ضاحكة:

– إني أغار من قدمي!..

أضافت:

- ولعلي أكن لهما احتراما خاصا!..

اجتذبني الفهم في نادية حمدي. لم يكن السر قد أطل من الغرفة المغلقة. فرحت للفهم والتطلع والمشاركة. اجتذبني كذلك ما لم أكن تعرفت إليه من قبل. البساطة في التحدث: السؤال والجواب وذكر المعلومة، دفعتني إلى الإفاضة فيما لم أكن أتصور البوح به. يشغلني الخاطر، فأحاول تناسيه، أو يتلاشى بتحقق الرجفة. ثم لم يعد يفارق معظم يومي، وأنا أقرأ، وأنا أشاهد التليفزيون، وأنا أقود السيارة، أو أتطلع من النافذة، أو أتحدث وأنا في السرير أتطلع إلى السقف. ينبهني محدثي إلى الجزر التي ابتعدت فيها. يفطن إلى غيابي، فيهمس: أنت معايا؟!..

بحت بالسر، فغادرت الصمت. تحدثت - للمرة الأولى - فيما أريده، وأحبه. ما كنت أخفيه أعوام عمري. أحاذر أن يفطن إليه أحد. لم أعد أحكم الإغلاق على الكلمات، ولا أطبق على ما أرغب في البوح به. انفتح الباب، فدخل الشوق، والحنين، والألغاز التي فضت مغاليقها...

عندما تشرب الماء المثلج، فإن ميلك إلى الارتواء لا ينتهي. تذكرت المواصفات التي كانت غائبة، كأن المارد لم يغادر قمقمه..

- كيف ترى القدم الجميلة؟..

غالبت ترددي:

- المستوية الأصابع.. المقلمة الأظافر..

صاحت كأنها اكتشفت أمرا:

- هذه مواصفات قدميك أنت؟!..

كانت ذكية، ولماحة ، وتحسن التخمين. جاست الغابة، ففطنت إلى مواطن التألق، اتصال الخيط، بتأمل القدمين الحافيتين في الكورنيش وشاطئ المحمودية وحدائق رأس التين، وعصا المدرس المنتشية بالقسوة، والعقاب الذي حرصت عليه في ألعاب التلاميذ. كأنها غادرت مشاعري، وما أكتمه، لتحدثني بما تعلمه جيدا..

قلت في سرعة:

- هذا صحيح..

ربما كان ذلك قبل أن أبلغ الخامسة. كانت أمي تميل على قدمي، وتقبلها. لا أذكر مشاعري – آنذاك – بصورة محددة، ولكنها ظلت مشاعر غامضة. وكانت ترافق – فيما بعد – نظراتي، وأنا أخلو إلى قدمي في كورنيش المحمودية، أو في دورة المياه، أو حين أتسلل بهما من تحت البطانية، وأتأملهما..

عندما أبدى عبد الباقي خليل ملاحظته، لفني غضب. ساءني أنه جاوز في ملاحظاته ما لا ينبغي تجاوزه. هذه التسريحة لا تليق. اخفض من صوتك. الدندنة للنساء. لا تصل قضاء.. تتصل الملاحظات بحياتي، بآرائي وما أفكر فيه، وتصرفاتي الشخصية، ألوذ بطبعي الذي يفضل الانطواء، فلا أرد عليه. حتى الأسئلة المباشرة، أهمل الرد عليها، أو أني لم أسمعها..

لكن عبد الباقي خليل تحدث – تلك المرة – عن نادية حمدي. أثارتني البساطة في ملاحظته. كأنه لم يقتحم عالمي الذي دخلته نادية – للمرة الأولى – بفهمها وإرادتها. تحقق المستحيل، وغادر السكن مكمنه، وتعالت الزغاريد:

– ما أظن أنك تقبل العمل مع هذه الفتاة؟..

علا الغضب في داخلي:

- لماذا؟..

قال وهو يمشط ذقنه:

- أشك في أن المرأة تصلح للتجارة..

قال النقراشي في تخابث:

- للتجارة فقط؟!..

جاوز التردد:

- رأيي أن مكان المرأة هو البيت..

أطلق النقراشي ضحكة مجلجلة:

- رأيك الحقيقي أعرفه.. مكان المرأة هو القبر!..

جاهدت للتخلص من الغضب. أحسست به في ارتعاشة يدي:

- أفلحت نادية في التجارة قبل أن ألتقي بها..

قال عبد الباقي:

- لا أتصور المرأة في غير الدور الذي جعله الله لها !.. ذوى العبث في سحنة النقراشي، فاكتست جدية خالصة:

- لما تزوج الرسول من السيدة خديجة، كانت تاجرة..

أطلق عبد الباقي ضحكة منفعلة:

- فارق بين استثمار المال والعمل في التجارة.

قال النقراشي:

- نظرية تجارية جديدة..

قال عبد الباقي:

- أبدا.. كان عمل الرسول هو استثمار أموالها..

تحركت الجرأة المندفعة، فلم اكتمها:

- امتدت ملاحظاتك إلى عملي وعلاقاتي بالآخرين!

أخليت وجهي للغضب، فتواصل الصمت..

دعتني نادية حمدي إلى بيتها..

رحبت بي أمها في ود حقيقي. سيدة تناهز الستين، تعنى - في جلستها - بتسوية الطرحة البيضاء، وضم ياقة الجلابية التي كانت مغلقة فعلا. روت عن زوجها الذي خلف معاشا من عمله بوزارة الداخلية، أنفقت معظمه على نادية - وحيدتها - حتى تخرجت في كلية الفنون التطبيقية..

ساد صمت ، فاستأذنت الأم..

قالت نادية:

- ما رأيك في قدمي أمي؟..

أدركت سخافة البوح. لو أن المارد ظل قابعا في مكمنه. جرني الضيق بعيدا عن كلماتها المعتذرة..

في أقل من شهر - بعد زواجنا - كان قد زارني أصدقاء بورصة النيل في شقتي الجديدة بشارع شريف. عماد عبد الحميد وعبد الباقي خليل وبخيت البشري وحسونة النقراشي ومنصور السخيلي. تناولوا الغداء أو العشاء وقضوا السهرة في الأيام القليلة التي تكاسلت فيها - ليلا - عن مغادرة البيت..

قالت - ذات صباح - ونحن على مائدة الإفطار:

- عماد عبد الحميد هو أشد أصدقائك قربا إلى نفسي..

فاجأتني الملاحظة:

- ولكنه يرفض أساليبك في التجارة؟..

- أقدر هذه الصراحة.. أحترمها..

قلت:

- والآخرون؟..

- كسبت صداقتهم.. ما عدا عبد الباقي خليل..

أضافت لنظراتي المتسائلة:

- يفضل العمى ولا يراني..

- إلى هذا الحد؟!..

- يرفض حتى مقابلة نظراتي..

- يرفض الاختلاط..

قالت من بين أسنانها:

- معقد!..

- رأي ظالم؟..

- لأنه صديقك..

- لولا إخلاصه لاكتفى بأن يظل تاجرا ناجحا!..

- الحاج البشري تاجر ناجح.. ولكنه لا يفرض وصايته على أحد!..

لم يكن ما قالته صحيحا. مع طيبة البشري، فإنه كان يغيظني تصوره أننا ما دمنا نصغره في السن، فإننا نصغره في التفكير. يكتفي بابتسامة - أكرهها - في المناقشات التي ينهزم رأيه. كأنه يشفق على محدثه. يتجنب أذيته، أو خدش

كبريائه. وكان يلتمس المبررات، لتأييد رأي كونه قبل أن نفد إلى المقهى. نجلس، نتحادث، يشغلنا الموضوع الذي تخلقه العفوية. يبدو كأنه قد أعد نفسه لكل الموضوعات التي يمكن طرحها، توصل فيها إلى رأي، فلم يعد إلا أن يبرر ما استقر عليه رأيه..

قلت:

- عبد الباقي يرى أن الصداقة تعطيه حق النصيحة!..

- فلماذا حين نصحك ثرت عليه؟!..

اتجهت إلى دورة المياه لأنهي المناقشة:

- أبديت ملاحظتي على أسلوب النصيحة. لا النصيحة نفسها!..

حدث ما حدث بسرعة، فلم أدر كيف بدا. لم نكن مشغولين في أمر محدد، نتابع نشرة أخبار التاسعة في التليفزيون، نعلق على موادها: مبادرة السادات تهب امتداد تأثيراتها..

لم يكن لي رأي. أشاهد وأستمع وأقرأ وأسأل وأناقش وأحاول الفهم. كل شيء في داخلي على ما هو عليه. لا يشغلني الأمر إلا بمقدار السر الذي يكشفه الحديث. الحدة

في التأييد، وفي المعارضة. قلت لاتفاق عماد وعبد الباقي – للمرة الأولى – في آرائهما: أخيرا.. اتفق الشامي مع المغربي!..

قال النقراشي:

– أنت المغربي.. فمن الشامي؟!..

قلت:

– يحسب للسادات أنه أفلح في تصفية الخلافات بين عماد وعبد الباقي..

قال عبد الباقي:

– أيدناه بعد أن توهمنا فيه خيرا.. بوعد إطلاق الحريات، وهدم السجون، وحرب أكتوبر.. ثم فعل ما فعل بزيارة القدس، وكامب ديفيد، واستضافة الشاه.. وكان لابد أن نعاديه!..

قال السخيلي:

– هل تكون حرب ٧٣ هي آخر الحروب فعلا؟...

قال عماد:

- منذ استغنينا عن السلاح الروسي.. أصبحنا مستعدين لقبول أي شيء..

- إني أحب أنف هذه المذيعة!..

أضاف النقراشي إلى نظرتي الداهشة:

- أنف المرأة هو ما يجذبني أليها!..

صدمتني واجتذبتني ، ملاحظته. قال ما قال ببساطة غريبة. لم تكن الملاحظة متسقة في الأصل مع تعليقاتنا على ما تذيعه النشرة. هذا هو ما يحبه في المرأة. ذكره ضمن حديث في السياسة، وغاب عنه الارتباك، فاجأتني ومضة السخرية في ابتسامة نادية حمدي. داريت انفعال وتوجسي:

- ما شأن حديثنا بجمال أنف المذيعة؟..

قال النقراشي:

- مجرد ملاحظة..

قلت:

- أمس.. أهداني بائع الحلوى في ناصية شارع إسماعيل صبري.. قطعة شيكولاتة إسرائيلية..

قال عماد:

- بداية زحف اقتصادي.. فائدته الوحيدة أنه سيخلصنا من أمثالك!..

قلت:

- وصفتني من قبل بأني مثل نبات الحلفا الذي يصعب انتزاعه.. أوافقك الآن على هذا الوصف!..

شغلني السؤال - ونحن جالسان أمام التليفزيون، في الشقة الجديدة بشارع شريف: هذا الهدوء الباسم.. ماذا يخفي وراءه؟..

تظن - لنظراتي الساهمة - أني أحدق في قدميها الحافيتين، تمدهما كأنما لتستوثق من اتجاه النظرات. أقاوم الضيق، وأتشاغل باللاشيء من حولي. لم يعد السر سرا، فتبدى المستحيل في نهاية الأفق. تعطيني الابتسامة التي تعابث جانب شفتيها، والكلمات الملمزة، والسحرية مما لا أفطن إليه، وربما ما لا أتعمده حين يجتذب التألق عيني، لأنها تدرك المعنى، فهي تعجب - وربما كانت لا تأخذ بالها لو أني لم أرو- لإهمال النظرات المحيطة. أعترض، وأناقش، وأفسر الأمر بأني لا أذكر مما تحدثت عنه شيئاً..

قلت لها:

- ضايقتني ابتسامتك لما تحدث النقراشي عن أنف مذيعة التليفزيون..

- حتى الصمت تحاسبني عليه؟..

- إني أفهمك جيدا..

- فلماذا لم تتجاهل ما تصورته ابتسامة سخرية، وتتحدث عما تحب؟..

تملكني ما يشبه العناد:

- ابتسامتك السخيفة ألجمت لساني!..

أضفت بأسى حقيقي:

- ليتني احتفظت بسري!..

وهي ترفع حاجبيها:

- إلى متى؟..

- لقاؤنا الأول.. مفروض أنه كان الأخير..

- لا تنس أني أنا الذي ذهبت إليك..

لم أفطن إلى نهاية الخيط في يدها، حين ألقت طرفه امامي. ربما فاجأها قبولي المفاجئ لتزويدها بعمال ينهون عملياتها. أضافت مشكلة الصديقة التي لم أسألها – فيما

بعد – من كانت ، حديثا شخصيا، يفضي إلى أحاديث أخرى تالية. اجتذب الصياد السر فلم يفلته. بدت – في البداية – منصتة وفاهمة. روت عن بيكاسو فلم يعد في السر ما يشين. أضافت من قراءاتها ديستويفسكي وتاليران وتليش. كلهم يعاونون ما أعاني، ويضمرون – ويعلنون – السر نفسه. غاب الإحساس بالوحدة، ورويت لها كل شيء. غلبت مشاعر الصداقة، فلم يكن في حوزتها ما أنشده، أو أبحث عنه. لما عرضت عليها الزواج كنت قد أسلمت خطواتي في درب الألفة والمؤانسة..

نطقت الدهشة:

لم تكن المسألة إذن بحثا عن عمال.. ولا مشكلة صديقة خانها زوجها؟!..

– ذلك كله صحيح.. ولكنني كنت حريصة على التعلم منك..

– مني أنا؟!..

– تاجر ناجح.. لماذا لا أتعلم منه؟..

قلت:

- كان والدك موظفا. وأنت خريجة فنــون تطبيقيــة. فلماذا اتجهت إلى التجارة؟!..

تعددت زياراتي إلى بيت أمها. كنت أدعوها للــذهاب، ولم تكن تطلب ذلك، مع أن البيت كان يطل مــن جانــب - على شارع محمد علي، ومن واجهته على شارع المناصرة من أوله، كانت تذكرني بورش صلاح الدين في الشــوارع المحيطة ببيت العطارين..

قالت:

- حتى لو أصبحت مديرا عاما.. فإن المرتب ســيظل محدودا!..

بدت غريبة عن أمها، وعن المكان كله. لم تعد ناديــة حمدي التي قدمت - ذات يوم - تطلــب النصــيحة، فهــي مطمئنة إلى طريقها، وما تريده..

هل كنت أبدأ الخطوة الأولى لولا نصيحة عماد عبد الحميد في بورصة النيل؟.. وهل كان يتحقق النجاح لولا النقراشي ومقاولات الباطن؟.. وهل كانت أيام العطارين تشي بتطورات الأمور؟..

صحت في غضب:

- انسي أني حكيت لك شيئًا!..

قالت في هدوء:

- سأحاول!..

عادت البسمة الساخرة إلى جانب شفتيها:

- وإن كنت لا أعدك!..

لو أني لم أبح لها بسر الغرفة المغلقة.

حاصرتني بنظراتها وحاصرت نفسي. أتوقع الفهم، فأجاوز التألق أمامي، أو في الجريدة وفي التليفزيون. أكتم الرغبة في التحديق. كأن عينيها ألف عين، تشغل المسافة من عيني إلى التألق حيث يكون. أتظاهر بالتأمل، بتواصل الحديث، بالتشاغل. أصرف - مغتاظا - نظراتي عن التألق الذي يدعوني للاستجابة - أكتم حتى الصرخات ودقات الطبول..

قلت:

- أنت الآن زوجتي.. أليس كذلك؟..

اكتفت بضحكة مبتورة..

أضفت:

- فلنتحاسب على الحاضر.. لا على الماضي..

بحلقت عيناها:

- أنا لا أحاسبك على شيء!..

أظهرت الغضب:

- هل أحيا معك وأنا أعطيك ظهري؟!..

صرخت:

- ما عرفته عن..

واستغنيت عن الكلمات بتعبيرات الأصابع. ثم أضفت:

- نحن الآن زوج وزوجة .. لا شأن لنا بما فات.. لا نتذكره حتى وإن كان نعرفه!..

رسمت تساؤلا في وجهها، وران صمت.

أطلت البقاء في المكتب، وزاد ترددي على بورصة النيل. لم تعد الجلسات بمثل ما ألفناه. علت الآراء ، والآراء المعارضة، وكلمات المعايرة والرفض والغضب. ربما شتم أحدنا الآخر بعبارة، فرد بأقسى منها. وطلب عماد عبد الحميد – ذات مساء – ما دامت كل المناقشات تنتهي

بخناقة – فرض حظر على الأحداث السياسية، فلا نقترب منها. أمامنا أحاديث الاقتصاد والجريمة والرياضة والفن..

لكن النقراشي ألقى القنبلة، فأحدثت خسائر مدمرة:

– وقعت صباح اليوم عقدا باستصلاح أرض مع شركة إسرائيلية!..

توقفت الملاعق عن الدوران في أكواب الشاي. اجتذبنا ما قاله، فاكتفينا بالدهشة في نظرتنا إليه..

أضاف النقراشي بتلقائيته المستخفة:

– آن الأوان لنحصد ثمار السلام!..

مضت الثواني التالية بطيئة كأنها زمن. ابتلعت كلمات التهنئة عندما انتطر عبد الحميد في تطوح، بتأثير المرض. احتواه الغضب. فبدا غير عماد الذي أعرفه..

– لن يجمعني مكان مع هذا الرجل!..

مد عبد الباقي خليل يده، يريد إعادته. لكنه أحنى جسمه، وتخلص ومضى..

لم يعد لدينا – بعد انصرافه – ما نقوله. فاجأنا تقضي الوقت لما بدأت الدكاكين المواجهة للمقهى في إغلاق أبوابها..

مع أن النقراشي غاب عن بورصة النيل، فلم يعد يتردد عليها، فقد تعددت لقاءاتنا ومشروعاتنا المشتركة. يزورني في مكتبي. نكتفي بالخطوط العريضة، ونترك التفصيلات للموظفين، يدرسون وينفذون. إذا جاءت سيرته في المقهى، أكتفي بالصمت كي لا يعرف عماد أني شريك النقراشي في الصفقات التي يعيبها عليه. كنت أفعل ما أفعل كعمل تجاري، لا شأن لي بالسياسة مع أو ضد، أنصت وأناقش وأتفق وأختلف بتوالي الأحداث.. لكن أحاديث السياسة تظل في الهامش، لا تغادره..

فطن عبد الباقي إلى ما أفعله، فقال:

– هل سدت كل الأبواب، فلا يوجد إلا باب إسرائيل؟..

غالبت المفاجأة :

– هذا نشاط اقتصادي..

استطردت:

- صادرات إسرائيل تغمر الأسواق، ورحلات العال منتظمة بين القاهرة وتل أبيب، والسفن الإسرائيلية تعبر قناة السويس، ولها حق الرسو في الموانى المصرية..

قال فيما يشبه التهديد:

- عماد لا يعرف ما حدث.. صدم في النقراشي.. ولن يتحمل فيك صدمة جديدة!..

قلت، لمجرد أن أدافع:

- **﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾**..

ضرب على كتفي بأصابع غاضبة:

- عظيم أنك تذكر ولو آية واحدة من القرآن!..

تحركت الجرأة المندفعة :

- نسيت أني زاملتك أعواما في صلاة الفجر بمسجد العطارين..

علت الأصوات من حولنا – فجأة – فرفع صوته:

- تكاثرت الأيام، فأصبحت أعواما..

- كانت أشهرا طويلة.. طيبة.

تشاغل بتقليب الشاي، ثم قال:

- و ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ ..هل حفظتها؟..

أضاف وهو يضغط – بعصبية – أسفل ذقنه:

- فتحت على نفسك بابا من الصعب إغلاقه!..

فوزي النمرسي..

كان هادئا ومستقرا في جلسته وراء المكتب الضخم، وإن توضح لي حرصه على تأكيد مدى سطوته. قدم سجائر ملونة، وتحدث عن فيلم الفيديو، النسخة الوحيدة في مصر كلها. وشدد على سكرتاريته بمعاودة الاتصال بمقر المجلة الرئيسي في أوروبا، وتلاعبت أصابعه بالخاتم الذهبي، والساعة الذهبية. حتى السلسلة الذهبية تدلى منها مصحف ذهبي..

قلت:

- إني أتوق إلى لقائك من زمان..

لم أكن أعرفه ولا التقيت به من قبل، خرج عماد عبد الحميد – للمرة الأولى – عن عزوفه، واحتفاظه – إلا فيما ندر – بمشكلاته الشخصية. انعكست أوضاع الجريدة – وربما تطورات المرض – في تصرفاته وكلماته، فهو سريع

الانفعال. وكلماته تشي بعدوانية لم تكن في طبعه، وتلاحق نتف إصبعيه للشعرة الوهمية في أذنه..

قلت:

– تعددت الصحف الحزبية.. فلماذا لا تكتب فيها؟..

قال:

– أن أكتب في جريدة حزب.. فمعنى ذلك أن أدافع عن مبادئه!..

– أتصور أن التجمع أقرب إلى آرائك؟!..

– أتفق معه في آراء.. وأختلف في آراء أخرى!..

– القانون يرفض قيام حزب شيوعي؟!..

– أعفني من ذكائك.. فلست ماركسيا!..

– هل تعارض بهدف المعارضة؟..

– أنا صحفي.. ولست رجل سياسة..

– إذن .. لا تكتب في السياسة!..

– حتى لو كتبت في الفن.. فلابد أن أعبر عن وجهة نظر الحزب!..

– أنت تضخم الأمور!..

- صدقني.. يريدون ترزية لا صحفيين..

لم تقترب نادية في تصرفاتها من آراء عماد عبد الحميد وتصرفاته، ولكنها كانت تعجب بها. عماد وحده - كانت تنصت إلى رأيه باهتمام. تدافع أمامه عما قالته، توضح وتبرر وتحاول الإقناع. يشغلها أن يجد في كلماتها ما يثير الاهتمام، ويحرضه على السؤال والجواب والمناقشة. لم يكن ذلك يحدث - في الأغلب - مع الآخرين..

قلت:

- الصحف التي تصدر في الخارج، وتحرر في القاهرة.. لماذا لا تحاول أن تشغل وقتك بالعمل في إحداها؟..

وافق ببساطة لم أتوقعها:

- وأين هي؟..

مع أني تعلمت من أحاديث عماد مفردات العمل الصحفي: التلكس والديسك والترويسة والمانشيت والماكيت وغيرها.. مع أني تعلمت ذلك من روايته لما يدور في توالي الأيام بالجريدة، فإن ملامح العمل الصحفي ظلت - في مخيلتي - غامضة ومشوشة. أطالع الجريدة فلا تشغلني

الخطوات التي سبقت صدورها. يحدثني عماد عن أقسام الجريدة ورئيس التحرير والإعلان والمطابع والإدارة، فلا أحاول التصور. يشغلني المعنى، ولا أذكر على أي نحو يجري العمل في ذلك كله. لم تتح لي أيام العمل في سوق سوريا وقتا للتردد على مكتبه. فلما أنشأت المكتب، وتوسعت الأعمال، صارت خطواتي محسوبة. اكتفيت بزياراته، أو يتصل بالتليفون، فأرد عليه، أو أرجئ لمشغولياتي..

قلت:

- مادامت الدولة تنقل الصحفيين إلى القطاع العام.. فسأطلب نقلك إلى إحدى شركاتي..

أضفت ضاحكا:

- ميزة الانفتاح أنه ألغى الفوارق بين العام والخاص!..

قلت للنمرسي:

- أصدقاؤنا في الداخلية أشادوا بحسن تعاونك!..

حرك - بتصرفاته - مشاعر كأنها التحدي. كأنه لا يدري من أنا، وأني أستطيع شراء ما في مكتبه، وشراءه هو نفسه. لم أتحرك من مكتبي إلا بوعد أنه لا يملك سوى

الموافقة، يتلقى الأوامر من الصف الثاني، يتلقون الأوامر من القيادات العليا.. أصدقائي وجلساء سهراتي..

قال النمرسي:

- نحن ندفع في المواد الصحفية ما يحقق الثراء لأصحابها..

أضاف في تأكيد:

- الصحفي هو الوحيد الذي يستطيع أن يوفد قلمه للتكسب من الخليج دون أن يترك مصر.. الطبيب لن يعالج مرضاهم هنا.. وكذلك المدرس.. لن يعلم أبناءهم في القاهرة.. أما أنت فتستطيع أن تثرى - كعشرات من الزملاء - تغطي كتاباتهم صحف الخليج دون أن يزوره مرة واحدة!..

نطق التوتر في ملامح عماد، فداخلني إشفاق. تشاغل بمتابعة فيلم الفيديو، والنظر إلى الحديقة التي تطل عليها النافذة، والكتب المتناثرة في أرفف المكتبة، والسكرتيرات اللائي يقدمن أوراقا، ويهمسن في أذن النمرسي..

- هذه أفلام للعرض المكتبي..

وأطلق ضحكة ملأت المكان:

- عندي في البيت أفلام خاصة!..

لست أذكر متى - للمرة الأولى - شاهدت ما شاهدت. ربما في مسقط أو دبي أو الشارقة.

أزور العديد من مدن الخليج فيما لا يزيد عن عشرة أيام. تبهت الملامح في الذاكرة. تختلط الأحداث والصور، أشبه بما كان يحدث لي عندما تسللت الخيالات المحمومة إلى عالمي الأثير. أبحث عن المعنى في أفلام لا تشغلني أسماؤها. أغادر دار العرض إلى ثانية، وثالثة. ربما قضيت اليوم كله خارج البيت. أعود والكتب تستند إلى صدري، تنبئ تساؤلات أبي بأني كنت أذاكر..

ما شاهدته عالم غريب، لم أجلس أمامه من قبل. أثارني، فتركت لجرأتي قيادها، تطلب المزيد. لم يكن يشغلني في المشاهد المتتالية، إلا الأحذية والجوارب التي تغلف ما أحب. لماذا لا يتألق الوهج في زحمة التعري؟!..

قلت:

- عندي من الأفلام الخاصة مكتبة كاملة!..

أطلق ضحكته المجلجلة:

- فلنوقع اتفاقية للتبادل الثقافي..

- شرطي لتوقيعها تعاون عماد مع المكتب..

قلت، وأنا أعيد كوب الشاي – فارغا – إلى الصينية:

- لن أذهب إلى المكتب اليوم..

قالت:

- لماذا؟..

- أبدا.. أريد أن أظل معك..

- لم تحسن اختيار الوقت. لدي مواعيد في المكتب..

- جراهام بل اخترع التليفون، لنعتذر عن المواعيد..

- لماذا اليوم بالذات؟..

- قررت أن أحبك بلا أقراص..

- فزورة؟!..

- بالعكس.. قررت أن نأذن لولي العهد بالحياة..

- إني سعيدة بأمومتي لك.

كان قد مضى أشهر على انتقالنا إلى الشقة المطلة على شارع شريف، ومن الخلف على أسطح. تبدو في نهايتها الميناء الشرقية. قل ترددي – بمفردي – على شقة العطارين، وإن كانت صورة بيتنا القديم تعاودني، تلح علي،

تحتويني الشقة بغرفها الثلاث، والصالة، والمطبخ، ومكتبة أبي، والنوافذ التي تطل على شارعي عبد المنعم والعطارين..

قدمني منصور السخيلي إلى أسرته: الزوجة والابن، والسفر إلى الإسكندرية والإسماعيلية وبورسعيد، والاعتذار عن المجيء إلى المكتب – أحيانا – لانشغاله بالمذاكرة لابنه. استعادت الذكرى أيام المؤانسة والدعابة والقراءة. ومراجعة أبي لدروسي، وترقب أمي عودتي – في النافذة – من دروس – التقوية في مسجد العطارين..

أفصح السر عن نفسه، وإن دفعني غياب التألق – بعد فرحة الأيام الأولى – إلى مجاوزة المعنى الذي كانت تهبه نادية. تحددت صورة المستقبل في تداخل الأيام القديمة ببيت العطارين، وتلك الأسرة التي أثارت ما لم أكن أفطن إليه، أو خطر في بالي..

أضافت وهي تتهيأ للقيام:

– ظروف عملي تمنعني من تحقيق أمنيتك..

قلت:

– إني أريدك زوجة وأما.. لا سيدة أعمال!..

- تزوجتني وأنا سيدة أعمال..

- كنت وحيد أبوي. ومن حقي أن يكون لي أبناء..

قالت وهي تشيح بيدها:

- هذا كلام لا أحبه..

- تزوجت أمس!..

لم يعن عبد الباقي خليل بتدبر ما قال في وجوهنا. ألفنا أقواله وتصرفاته. أعلن رفضه للذهاب إلى أبي العباس. الصلاة في مسجد به قبر محرمة، حتى يهدم أحدهما. اختار لأداء صلاة الجمعة زاوية صغيرة في شارع بيبرس، الإمام فيها لا يقرأ خطب وزارة الأوقاف. ألفنا الجلابية التي تهبط - بالكاد - تحت الركبتين، واللحية والمسواك والتمتمة بما لا نعرف، وهو جالس معنا أو هو منصرف إلى نفسه..

بدا متعصبا لرأيه، وربما اتهم محدثه بالكفر لمجرد أنه خالفه في الرأي..

قال عماد:

- لو أنك دعوتنا.. كنت تكسب هدايا قيمة!..

قال عبد الباقي:

- تم الحفل في مسجد العطارين.. حضرة قلة من أهلي وأهلها..

قال البشري:

- جوازة أم جنازة؟!..

قال عبد الباقي:

- للزواج حكمة أكبر من الأفراح!..

قلت وأنا أجاوز نظراتها:

- سؤال يشغلني منذ زيارتك لمكتبي..

هزت وجهها تستحثني على المتابعة:

- إذا جاوزت الفتاة الخامسة والعشرين، يتملكها الخوف من أن تظل بلا زواج..

قاطعتني في بساطة:

- لماذا تأخرت في الزواج؟..

قلت وأنا أحرك جرأتي الراقدة:

- نعم..لماذا؟..

قالت:

– لماذا لم تفكر في الزواج حتى السابعة والثلاثين؟..

أضافت:

–لا تتحدث عما تريده في الفتاة، فقد تزوجتني بلا مواصفات.

آلمتني الكلمات. لم يعد السر سرا. حتى غياب التألق لاحظته. أسلم نفسي إلى الموج، وأجدف في ملامح أختارها بعناية. سألت مرة في إشفاق: هل تشكو شيئًا؟ قلت: لماذا؟.. قالت: كأنك لست هنا. أهملت الإجابة، وتركت جسدي للموج يقذف بي إلى منتهاه. بدت كل النوافذ – في ملاحظتها – مفتوحة. كنت أزمعت وضع الحواجز، فلا أسمح بإذاعة كل ما يشغلني، أو فد إلى خاطري. لكنها – هاأنذا أتبين!– فطنت إلى ما حاولت إخفاءه، والإخفاق حصاد شبكتي التي تصورت أني أجدت رتق ثقوبها..

قلت:

– الاختيار يفرض نفسه في كل شيء.. وكان الزواج مهما. لكن النجاح كان هو الأهم!..

أشاحت بباطن يدها، كأنها تطلب صمتي:

– لماذا سألتني مادمت تريد إجابة بعينها؟!..

قالت نادية حمدي:

- صاحبك سرق عماد عبد الحميد..

قلت في استغراب

- من صاحبي؟..

- النمرسي.. أليس هذا هو اسمه؟..

- من أخبرك؟..

- عماد.. اتصل بك هذا الصباح.. قال إن الرجل أغراه بأربعمائة جنيه.. ثم لم يعطه مليما واحدا..

طلبت ن سكرتيرة مكتبي أن تتصل بالنمرسي. ثم طلبت منها ألا تصلني به. داخلني شعور لم أستطع أن أسيطر عليه، أو أكتمه. ماذا أفعل لعماد أن لم يكن هو نفسه قد أصر على أخذ حقه؟.. ضايقني أنه روى لنادية ما كان عليه أن يرويه لي. وضعت قدمه على أول الطريق.. لماذا لا يمضي بنفسه إلى النهاية؟.. يكتب، ويأخذ أجره. يلح في طلبه. أشفقت للمرض الذي امتصه. ثم تذكرت آراءه ونصائحه ومخالفته لي في كل ما أقول أو أفعل. وقررت أن أهمل ما سمعت.. أتناساه تماما. حتى لو حدثني بنفسه، فلن يشغلني الأمر. لماذا لا يحصل على حقه بنفسه؟!..

وصلت المكتب، فوجت في انتظاري عشرات المكالمات التليفونية. مجرد قولي: آلو، كان السؤال يتناهى من الطرف الآخر:

- هل قرأت القانون ٧٥ لسنة ١٩٨٠؟..

لم أكن قرأت شيئًا. لم أكن قرأت حتى الصحف اليومية. قلت ونحن نتناول الإفطار:

- أريد أن أتكلم معك..

أهملت الملعقة في برطمان المربى:

- وماذا تفعل الآن؟..

- بقيكلام أنهيناه دون أن نستكمله..

خمنت ما أردت التحدث فيه:

- إني مشغولة الآن!..

- إلى متى؟..

تسللت حدة إلى صوتها:

- لماذا تحرص على مضايقتي؟!..

- لا أتصور أن حقي في الأبوة يضايقك؟!..

- إذا عدت إلى هذا الكلام.. ساءت علاقتنا!..

غادرت المكتب بلا هدف. المشكلة أكبر من كل الكلمات. حاصرتني الحيرة، فلم أدر كيف أتصرف. أحسست – بما يشبه الاكتشاف – أني عشت محروما من كل شيء تقريبا. الحنان والحب والاحترام والحقوق. حتى جزيرتي المنعزلة، أحيا داخل أسوارها، فلا يؤنس وحدتي القاسية فيها أحد..

قدت السيارة إلى العطارين. توقفت أمام بيتنا القديم. شاهدت فتاة في السادسة عشرة تنظف زجاج شقة الخواجة نيقولا، المقابلة. عرفني عم توفيق صاحب دكان الكتب القديمة بشارع مسجد العطارين، فبادلته التحية. طلبت شايا وقطعتي "باتيه" في التريانون. قاومت الغضب والضيق والمجهول. لم أناقش الأمر. اتخذت – لقاء رفضها القاسي – قراري: نفذه، أو تفارقني بإحسان..

هل انعكس ما جرى على وجهي؟..

لكن السكرتيرة أطالت نظرة الإشفاق وهي تشير إلى قائمة المكالمات..

ماذا يعني القانون بضرورة "تقديم المستندات الدالة على أن البضائع الأجنبية خالصة الضرائب الجمركية وغيرها من

الضرائب والرسوم المقررة"؟.. ماذا عن أطنان البضائع المكدسة في المخازن والمستودعات، وفي الشقق أيضا؟..

نسيت الحوار الصاخب. ذوى وتلاشى، فلم يعد يشغلني سوى القانون الذي يعني تطبيقه مأزقا، وافقت على صيغة نداء في الصحف: "صرخة من تجار الإسكندرية إلى كبير العائلة المصرية"، بإعادة النظر في القانون لأنه يعرض أكثر من مليوني تاجر إلى أحكام شديدة القسوة، "ذلك لأنه لدى التجار مخزون كبير من السلع الأجنبية المستوردة، مما يضر بالمصلحة العامة والاقتصاد الوطني، إذا ما تم تطبيق هذا القانون الذي فوجئ به جميع التجار، مما يسبب الأضرار الجسيمة لهم، حيث إنهم يتعاملون بالبضائع المستوردة". وطالبنا – كتجار – في نهاية النداء، الصرخة، بالمهلة الكافية لتصريف المخزون من البضائع الأجنبية..

أحسست بأن البقاء في المكتب – لأي سبب – سخف ومضيعة وقت. عدت إلى البيت، وأغلقت حجرتي من الداخل، ونمت..

عادت جلسات المساء في بورصة النيل إلى استمرارها القديم، وإن غاب عنها حسونة النقراشي. تمتد الأحاديث

والتعليقات والمناقشات واختلاف الآراء في تطورات الأحداث. ما يجري، والمتوقع، غير ما اعتاده الناس. السادات يخطب كثيرًا، يدلي بالأحاديث الصحفية، يطل على الدوام من شاشة التليفزيون..

قال الحاج بخيت البشري:

- لو أنه يتقاضى أجر ظهوره على الشاشة، فسيصبح مليونيرا..

تساءل عماد بجدية:

- ألم يصبح مليونيرا بعد؟!..

ثم غاب عبد الباقي خليل. لم يعد يتردد على الجلسة. أو يظهر في حياتنا. تصورت - كالعادة - أنه اعتقل.. لكن الأحاديث تناولت الالتقاء به في شوارع المدينة، وفي مساجد الضواحي. لمحته بنفسي في المقعد الخلفي لسيارة. أبطأت سيارتي لأتأكد، بعد أن حلق ذقنه..

امتدت التعليقات إلى حل السادات مجلس نقابة المحامين، وتعيين مجلس مؤقت، وسحب حزب العمل تأييده لاتفاقيات كامب ديفيد، وخطب المساجد في الأوضاع الداخلية، واستقلال الوطن، وإيقاف البابا شنودة صلوات عيد

الفصح، وامتناع الكنسية عن إرسال ممثليها إلى الاحتفالات الرسمية، وشائعات الأسلحة والأموال التي تصل من واشنطن، وأخبار الفتن الطائفية في أسيوط والشرابية والزاوية الحمراء والمطرية..

قال عماد:

– قابلت عبد الباقي أمس في ميدان محطة الرمل.. حلق ذقنه، فلم أعرفه، لولا أنه بدأني الحديث..

غاب عبد الباقي عن المكتب وجلسات بورصة النيل، فتصورت أنه عاد إلى المعتقل. ألفت غيابه وظهوره، فلم أعد أسأل أين كان.. لم يكن هو كذلك يروي عن غيابه ولا ماذا يحدث. يرفض وينتقد ويسخر ويعلو صوته، تغيب الصور التي أسمعها عن الحياة في معتقل. كأنه لم يذهب إلى هناك، أو أنه يواصل حديثا لم يطل انقطاعه. الأحداث تشغي بما يستحق أن يروى، وتكشف أسراره، وتتاله التعليقات: هل ألجمته القرارات الأخيرة، فحلق ذقنه، وقرر أن يعني بتجارته؟.. لكن التجارة في الأصناف المشابهة مسارب تفضي إلى بعضها البعض، تجارته على حالها، فلا أعرف أنه بدأ توكيلات جديدة، أو أنه عقد صفقات للتصدير. هل

هي الخشية من الاعتقال؟.. فماذا عن اللامبالاة والرفض والملاحظات التي لا تنتهي؟..

سألني عماد:

- ألم تكن تلتقي به؟..

- مرة واحدة.. رأيته من بعيد..

- آخر مرة رأيته فيها، عقب أحداث الزاوية الحمراء.. أكد أن السادات يتآمر على الجميع.. ثم لم نعد نلتقي!..

حتى السوق أصابه التوقع. المعاملات بالكاد. من يشتري يدفع الثمن، المشروعات الكبيرة تلغى أو تؤجل. حول البشري رصيده من الدولارات إلى حساب له في الخارج. غلبتني الحيرة، فقلت لعماد:

- إنهم يسجلون أملاكهم وأغلب عملياتهم بأسماء الزوجات والأبناء..وأنا، لا أبناء.. والزوجة تعمل لحسابها!..

لم أعد أشارك في المناقشات برأي أو تعقيب. اكتفيت بالإنصات، وربما جرني الشرود فلا أتابع ما يدور، حتى يعيدني إلى الجلسة سؤال باسمي، أو عبارة موحية من صديق قديم، أو مشادة تعقب اختلافا في الرأي..

ظل عبد الباقي خليل متخفيا، فلم أسأل عنه. زاد من اطمئناني قول عماد لي إن لقاءاتهما تكررت في شوارع المدينة. وكان يبدو مشغولا..

كنت قد حددت لمنصور السخيلي عمله. أقرب إلى مسئول العلاقات العامة، أو ضابط الاتصال بين شركاتي وبين الوزارات وشركات القطاع العام..

غالب التردد، وهو يبدأ مشواره اليومي. قلت أحرضه على التحدث:

- ماذا؟..

- أبدا.. مسألة شخصية!..

- نحن أصدقاء..

أضفت:

- ربما أفادتك نصيحتي..

- أثق في ذلك..

أشرت إليه، فجلس. لم أره من قبل بمثل التوتر الذي تسلل حتى أطراف أصابعه فهي ترتعش. تشاغلت بتقليب الأوراق أمامي، حتى استجمع نفسه، والكلمات:

- أحتاج إلى عونك في إنشاء شركة مستقلة..

- كيف؟..

- شركة مستقلة.. باسمي!..

لم أدر كيف تصرفت - في اللحظة التالية - ولا ماذا قلت. تلاحقت الدوامات قاسية، فلم تشفق حتى على الكلمات المعتذرة والتوسلات والحيرة والفزع. تتناثر كومة القش فأزيد من رياح عواصفي. بدا مستذلا وبلا شأن. تواصلت الكلمات المهددة، حتى انتطرت الدموع من عينيه، فداخلني شعور بالارتياح، وسكت..

سبقت الموظفين في دخول المكتب الرئيسي، وجدت الصحف رتبها السعاة فوق مكتبي. دفعتني الأحداث المتوالية، وخطب السادات، والجو المفعم بالغرابة، إلى القراءة والمتابعة. ثورة سبتمبر هو الوصف الذي أطلقته الصحف على الإجراءات العامة، حل جمعيات سياسية ودينية - سحب الاعتراف ببطريرك الأقباط، إلحاق المساجد التابعة للجمعيات الإسلامية بوزارة الأوقاف، إيقاف مطبوعات عن الصدور، نقل عدد من أساتذة الجامعات إلى وظائف أخرى..

رأس المال جبان. تعرفت إلى المعنى في صورته الحقيقية من أخبار الصحف وتعليقاتها: الثورة الثالثة، أخطر من قرار أكتوبر، ثورة في العمل الداخلي، الثورة الإصلاحية الشاملة، ثورة السادات الجديدة..

بدت الصورة غير طبيعية، تعاني من ظلال، واهتزازات، وغياب للملامح.. كان الخوف هو الحد الذي تنتهي إليه خطواتي. أنصت إلى آراء النقراشي، فلا أنفذ إلا ما يبعد عن الجريمة. حتى تغيير العملات، كنت أحرص أن يتم بواسطة الموظفين، وفي أماكن بعيدة. يمضني إحساس أن ما صنعته يمكن أن يذوى، ويتلاشى، يصبح كأنه لم يكن..

قال البشري:

- جعل محمد علي مثله الأعلى، فتلخص منهم كالمماليك في ضربة واحدة!..

قال عماد:

- حماية السادات من الاغتيال، هي المهمة الأمنية الأولى هذه الأيام..

قال البشري:

– هذا الرجل لن يموت مقتولا.. سيهلكه جنون أو انهيار عصبي مفاجئ!..

كنت ألتقي بما ينقلني إلى جزيرتي الغالية، أتوق وأحن وأتخيل، لحظات وتبعدني الأسئلة والآراء والتعقيبات والمناقشات التي لا تهدأ. توالي الأيام، توقع لا أدري كيف تبين قسماته. الأصدقاء لم يعودوا هم. الجلسات المسترخية في بورصة النيل، غلب عليها التوتر، الخلاف الذي ينشأ بلا مناسبة. غياب عبد الباقي خليل شاغل الجميع. أضاف إلى المخاوف والتساؤلات أنه لم يكن معتقلا. تكررت لقاءات عماد والنقراشي به في شوارع المدينة، يبدي انشغاله، ويسلم، ويمضي..

لم أعد أتردد على البيت إلا لأنام. تجلس في الصالة. التليفزيون مضاء، أو تقرأ إذا انتهت برامجه. ربما أدارت أسطوانة بموسيقى أو أغنية. أسأل عن العشاء، أو أفضل النوم بلا طعام. أتجنب الخوض في الحديث الذي ليتني ما أثرته يوما. لو أن المارد يعود – بوسيلة ما – إلى قمقمه، لا تعرف نادية، ولا أحد، بصراخه في داخلي، ولا انعكاسات ما يريد في تصرفاتي الظاهرة. حين نزعت سدادة القمقم،

وبحت بما لم أكن أتصور أني سأبوح به. توهمت أن شواغلي لن تجاوز المكتب والموظفين والعملاء. تختفي الخيالات والانطلاقات المجنونة. أغادر الجزيرة المنعزلة، فلا يكون في داخلي ما أكتمه.. لكن حصار البسمة المشفقة، والكلمات الملمحة، والنظرات التي لا تفلت شيئًا، جعلني لا أقوى حتى على تبين الملامح والتفصيلات. يشغلها أن التألق تملكه، فتبديه، أو تصل بين عيني وما أرنو إليه. يلفني الحصار، يبدو لي ثمن مجاوزة العزلة قاسيا. وكل شيء من حولي مهزوزا وأدركت أني سأفقد أعصابي- في لحظة – أو أصاب الجنون..

زاد قلقي حين عدت إلى البيت، أياما، فلم أجدها. تتحدث – بعد عودتها – عن مواعيد المكتب التي طالت. الشك فرض نفسه، فلم أعد أصدقها. حتى التصرفات والكلمات التي كانت جزءا من أحاديث البيت، أو العمل، لم أعد أنظر إليها، أو أناقشها، في ظل البساطة التي كانت. أدقق في معنى التصرف ودلالة الكلمة، ربما أفضت في السؤال لأصل إلى المعنى الغائب. تزيد في إيلامي – وغضبي – بعزوفها عن الإجابة، أو بتلك النظرة التي رافقت

سؤالها عندما التقيت – للمرة الأولى – بأمها: ما رأيك في قدمي أمي؟..

حدث ما حدث في لحظة، أو أقل، فلم أعد احتمل وجودها. حين تسللت – ذات ضحى – إلى الأحراش. لم أكن أتصور أنها تعود إلى البيت، ولم أكن هيأت نفسي، ولا تصورت أن تشابك الذكريات، وما رأيته في القريب، والبعيد، سيقودني – بلا إرادة – إلى اللحظة الصاخبة.

أنعزل عن كل ما حولي. أنسى الزمان والمكان، فلا يبين سوى التألق. أستعديه من حيث يقيم، أحدق فيه وأحادثه وأتشممه. أكتم صخرات الشوق واللهفة. لا أدعه، حتى تقد الرجفة، فأخلي سبيله..

لم تعد تهبني ما كنت أريده، واستحال السر على شفتيها بسمة سخيفة، فعدت إلى ما كنت فيه.. أجوس في دنياي، تصنع الملامح ذكريات ورؤى، وربما صورة في مجلة، أو فيلم، أغلق الباب، وأشاهده في الفيديو..

أهملت التقارير، ورنين التليفون، وحتى برامج القناة الأولى في إرسالها الصباحي. توالت المشاهد التي استدعتها الذاكرة، وتألق الوهج بما لا يقاوم. وحين دار مفتاحها في

الباب، كانت اللحظة قد اجتذبتني تماما. تدثرت بأغصان الغابة المتشابكة، فبهتت المرئيات والأصوات. بدت كالهلاميات والأصداء البعيدة..

فاجأتني بوقفتها أمامي، وفاجأتها – بالتأكيد – بما رأت. لاحظت ارتباكي، وأني – في اللحظة التالية – لم أدر كيف أتصرف. سارت في حجرتها، كأن الأمر لا يعنيها، أو أنها لم تشهد شيئًا..

أسر الشابان إلى بعضهما بكلمات هامسة..

قال أحدهما:

– أنت.. تعال!..

فطنا إلى انغماسي في الخيالات، في جلستي بالقرب من قصر رأس التين، والحدائق – عند نهاية الأفق – تتداخل في مياه البحر. وثمة – وحدها – أشرعة المراكب، والصخرة الساكنة وسط المياه. فطن الشابان إلى ما يحدث، ولم يكن في مقدوري التراجع:

لماذا؟..

– أريد أن أحدثك!..

– ماذا تريد؟..

حين أستعيد ما حدث، فمن المؤكد أني كنت مستفزا للغاية. ومرتبكا. لم تكن الجرأة هي التي تحركت في مكمنها، ولا كنت أدرأ "الفعل" الآتي الذي لم أكن أتصور ملامحه. كان جسدي كله قد تصلب، وتهيأ لمواجهة الخطر. صار الجنون ملجئي إذا حاولا الاقتراب حيث أجلس.. لكن الشاب الذي دعاني، أطلق ضحكة مستخفة، وعاون صاحبه على القيام، ومضيا..

داريت نفسي بما وسعني، وغالبت الحرج والخوف. عادت بتايير مختلف، وقالت في ابتسامة، لم أكره شيئًا في حياتي قدر كراهيتي لها:

– نسيت بعض الأوراق..

شغلتني تصرفاتها في الأيام التالية: كيف فهمت ما كنت أفعله؟.. وهل تقتحم – بجرأتها –جزيرتي المنعزلة؟.. هل تسأل، أو تبدي ملاحظة، أو تفضح السر؟..

كنت أنظر إلى غير مكان، فلا أواجه عينيها. تغيظني الابتسامة التي كأنما ألصقتها بوجهها. بدت لي الأيام التالية مما لا أستطيع مواجهته. تمنيت أن تختفي من حياتي، أو تموت..

صحوت متأخرا كعادتي في الأشهر الأخيرة. لم أحاول أن أنظر إلى ساعتي، ولا أن أتصل بالمكتب الرئيسي، لأعرف ما ورائي من مواعيد. ملاحظات نادية الغريبة. والمتوالية، دفعت بالحمم من فوهة البركان، تنذر بالدمار، أغادر البيت، فأعود في نهاية الليل. أتأكد من إغلاق الحجرة جيدا. أرفض تناول الطعام في البيت، أرفض المناقشات، وحتى الأحاديث العادية. بارعة في اجتذاب طرف الخيط، حتى تعلن – في النهاية – رأيها..

أخلى السخيلي المكتب لقدومي. لاحظ اتجاهي إلى جهاز التليفزيون:

– برامج الصباح تافهة..

– بدأ العرض العسكري..

هتف متذكرا:

– ٦ أكتوبر..

توالت مشاهد العرض العسكري. ظهر السادات مبتسما، وواثقا، ينصت إلى أحاديث نائب الرئيس، ووزير الدفاع، يتحدث إليهما، يتابع تشكيلات الطيران، يقف ويرفع الكاب، يصفق تحية لقوات الاستعراض..

تماوجت الصورة، وانتقل البث إلى الأستوديو..

نزلت – بتلقائية – إلى الطريق. الشائعات عن إصابة السادات. أصيب في ذراعه، ونقل إلى المستشفى. أطلق عليه جنود العرض الرصاص، وهم يمرون أمامه:

– آخر الأنباء أنه مات!..

– مات؟!..

– تلاوة القرآن في الإذاعة والتليفزيون معناها: كبير رحل!..

من الذي قتله. إلى أي الأحزاب أو التنظيمات ينتمي؟.. وهل سهل قتله يوم العرض العسكري؟.. وهل سبق القتل العرض، أم أنه حدث بعد انتهائه؟.. وهل هو حادث فردي، أو أنه جزء من مؤامرة كبيرة؟.. وماذا تخبئ الأيام؟..

لفني شعور كأنه اليأس، كأنه الحزن أو الغضب أو الخوف من المجهول. واصلت سيري إلى البيت في شارع شريف. التقيت بعماد وصديق له قادمين من ناحية سوق راتب إلى المنشية..

قلت وأنا أغالب مشاعري المتناقضة:

- جرى ما جرى في سهولة كالحلم!..

واجهتني في نهاية الردهة المفضية إلى الصالة. ترتدي "تايير" أصفر اللون، وحذاء باللون نفسه، وحقيبة كبيرة في يدها..

- إلى أين؟..

- سأغيب عن الإسكندرية بضعة أيام..

- إلى أين؟..

- لم أعد أسألك عن تصرفاتك.. فلا تسألني عن تصرفاتي..

- عدنا إلى الكلمات السخيفة!..

- سأريحك من كلماتي!..

وقفت في طريقها:

- إذا غادرت البيت، فلا تعودي..

اتسعت عيناها:

- تبدو كزوج حقيقي..

- لك رأي آخر؟..

قالت في لهجة محسوبة:

– نسي المريض مرضه!..

أضافت من بين أسنانها:

– أنت لا أصل ولا مستقبل..

اختلطت الصور وتماوجت: غياب أمي وأبي في يوم قاسي الحرارة، ترددي على سوق الكانتو أبيع ما خلفه أبواي. إحكام خالتي الملاءة حول جسدها وهي تغادر البيت، ما يهمني أن آكل بمزاجي وليس بالفقر، هذه مكافأة شهري الأول في الصحافة فابدأ بها، متى يحقق الحلم المجنون نفسه؟، السر الذي يستحيل البوح به هو المشكلة التي باخ إزاءها كل شيء، ما رأيك في قدمي أمي؟ تزوجتني بلا مواصفات، هذا كلام لا أحبه، هل يعني هذا أني أصبحت مقاولا؟ هل التأميمات قادمة؟ هل تأتين معي؟ جلسات المساء في بورصة النيل، إبداء الرأي وكتمه، نصائح النقراشي ومناقشات عماد وعبد الباقي، كيف أصل إلى قمة السلطة؟..

لا أدري كيف – في اللحظة التالية – حدث ما حدث، صرخت، وتأوهت، وسقطت أمامي، وسال الدم من جسمها إلى أرضية الردهة..

ألقيت بالمسدس، وأغمضت عيني، وتنهدت مرتاحا..

عدت إلى البيت بعد أيام يصحبني وكيل نيابة وضـــابط وجنود..

لم أكن أعددت نفسي لما حدث، ولا تصورت حدوثه. رتبت مواعيد ولقاءات وأوامر للتنفيذ وأوراق تطلب التوقيع. ولأني كنت أنوي العودة في المساء، فقد نسيت – ربما – أدراج مكتبي مفتوحة. بدت صورة الحياة في الخارج غامضة، وبلا تفصيلات. قال لي مأمور سجن الحدرة: نادية حمدي ماتت!.. وشغلني ما تحدث به الضباط عن تكتم أسماء قتلة السادات، وحدوث اضطرابات في أسيوط. وقال لي المحامي: ما يهمنا الآن هو القضية التي بين أيدينا. انس كل شيء.. وتذكر حياتك. مهمتنا هي إنقاذها!..

كل شي على حاله: التحف الصغيرة – من المزادات ورحلاتنا إلى الخارج – فوق الأرفف، وعلى المناضد الصغيرة في الأركان، ستارة الزجاج الملون المفضية إلى داخل الشقة، في انفراجتها التي تسع – بالكاد – شخصا واحدا (الوضع الذي تحرص عليه نادية في ترتيب البيت) اللوحات التي رسمتها، أو اقتنتها، تعلو جانبي الصالة، جرائد اليوم الأخير ملقاة على الفوتيل، كوب ماء استقر في قاعة،

بقايا شاي (ترفض احتساءه في فنجان)، حتى الحقيبة الكبيرة استقرت في موضع سقوطها. مع ذلك، بدا لي المكان كأنه ليس هو. ربما الإضاءة علت، أو أنهم ضغطوا على كل الأزرار شاكر المغربي: لافتة الباب. لم يكن بوسعي التحرك بعيدا عن الصالة..

أعدت رواية ما حدث، وإن أهملت ما رويته لك. مضى – برحيلها – السر الذي كنت أخشى افتضاحه. أعدت المارد إلى القمقم ، وأغلقت السدادة:

– لماذا؟..

– خلافات عائلية!..

– إلى حد القتل؟..

– أهانتني ..

– فقتلتها؟..

– هذا هو ما حدث!..

لا شأن له بما فات. هذا شأني، وسري الخاص. مهما عانيت. فلن أسمح بأن يجاوز مكمنه. تغيب النظرات

والتصرفات عن الأعين الفاهمة. البوح لأنك أنت من أنت، ثم أحيط غابتي بأسوار، فلا يدخلها أحد..

وأنا أخطو إلى باب البيت الخارجي، يصحبني ضابط، ويتبعنا جنود، تناهى صوت من دكان قريب: أيها الإخوة المواطنون!..

أيها الإخوة المواطنون؟!..

لمن الكلمات؟!..

١٩٨٦/٣/٢١

محمد جبريل – مصر الجديدة